الكتاب في المنار: الأندلسية

عبدالله الجعيثن

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

— ١ —

ضمن الأعمال الفكرية المتنوعة للأخ الباحث عبد الله محمد الحبشي يتحف المكتبة هذه المرة بهذا المؤلف الذي تناول فيه طريقة البحث عند علماء المسلمين واسلوبهم في التأليف والكتابة وكل ماله صلة بالكتاب ، وليست من أبي بكر ببكر كما قيل فقد عود القاريء على امداده بالكثير من أبحاثه ومؤلفاته وتحقيقاته لكتب التراث وآثاره وأعماله الفكرية تشهد له بجهده المتواصل ، واهتمامه اللامحدود بالتنقيب عن كل مخزون فكري مكتوب مما أكسبه ثقة واحترام الكثير ، وله الفضل في ابراز خمسة عشر كتابا الى حيز الوجود ، خاصة ما كان منها تراثيا كانت وبلا شك تكاد تكون مفقودة .

ومما يثير الاعجاب هو حبه الشديد وولوعه باقتناء ومتابعة كل مؤلف جديد له صلة بالعلوم الانسانية ، اما المخطوطات النادرة فهي شغله الشاغل ويؤثرها على لقمة العيش ، ونتيجة لهذه الظاهرة المحمودة تجد منزله المتواضع مليئا بالكتب المتنوعة والمراجع النادرة وما يزال يواصل ليله نهاره قراءة وبحثا وكتابة ، ويعني هذا انه وهب حياته واعطى حبه خدمة للتراث والعلم والوطن .

— ٢ —

ويطالعنا في هذا المؤلف الموسوم بـ (الكتاب في الحضارة الاسلامية) وكما سيلاحظ القاريء صدق هذا العنوان ذلك ان علماء الاسلام في كتاباتهم اعتمدوا على قدراتهم الذاتية في مجال الكتابة والتأليف بأدوات بسيطة قوامها المحبرة والقلم القصب ومع ذلك فقد تركوا لنا بفضل هممهم وطموحهم الواسع تراثا ضخما ما زال فخرا للعرب ، ولعل من العوامل في نجاحهم في اغناء التراث هي الهمة العالية التي اضطلعوا بها الى جانب ظروفهم المعيشية البسيطة والخالية من التكلف ، ومع ذلك فالطرفة والفكاهة كانت تحدث اثناء تأليفهم

كحالة رافقت مسيراتهم الفكرية بعبارة مرنة خالية من التعقيد ، ويرجع ذلك الى اختيار الكلمات المؤدية للمعنى دون اغراق القاريء بعبارات مطاطة قد تفوق او تعظم ما يراد منها في تأدية المعنى المقصود وهذا الاسلوب المبسط كان من الشروط المفروض تواجدها في اسلوبهم الكتابي .

— ٣ —

والكتابة كفن حضاري فقد تركوا ضمن مؤلفاتهم فصولا توجيهية توضح كيفية اعداد آلات الكتابة ابتداء من القلم القصب ومرورا بالمداد وتنويعه وفن التجليد وانتهاء بالمواد التي تستخدم لازالة الحبر ونحوه كمادة يلجأ اليها عند التغيير والاصلاح لأي خطأ .

وبما أن النساخة وهي الوسيلة الوحيدة آنذاك لنشر وتدوين مؤلفاتهم وهذا مكلف طبعا لهذا لقد كانت العارية عند بعضهم صعبة في حين ان بعضهم فقدت كتبه بسبب العارية .

والنساخة كفن ايضاً فقد احترفها رجال اشتهروا بجودة الخط ودقة الصنعة في تزيين خطوطهم . كما أن لهم حكايات

طريفة تتعلق بمزاولتهم لهذه المهنة الشريفة .

ويلاحظ ان من العوامل التي دفعتهم الى مزاولة النساخة (الوراقة) هو ما لاقوه من الدعم السخي الذي كانوا يتلقونه من الملوك آنذاك وبالتالي كان سببا في تكوين وانشاء تلك المكتبات الضخمة مثل دار الحكمة وجامعة القيروان وغيرهما ، كما أن المؤلفين هم الآخرون كان لهم دعم مادي ومعنوي كان سببا في تنشيط حركة التأليف .

— ٤ —

وطريقة التأليف كانت تعتمد على الحفظ غالبا ، والنقل كان نادراً ، كما أن اختيار وقت معين وترتيب الأوقات للكتابة كان عاملا مساعداً ومهماً في اثراء كتاباتهم ومؤلفاتهم ، والنقل كان معيبا ومن هنا كتب البلاغيون بابا خاصا بالسرقة اللفظية والمعنوية كما ان تعمد اخفاء المراجع التي تم الاعتماد عليها شيء غير لائق ينافي قواعد التأليف وحقوق المؤلف ، اما تحريهم الدقيق لما كتبوه فقد كان محل اهتمامهم ويتمثل في عرض مؤلفاتهم على اقرانهم ومن هو في مستوى الثقافة

المعتمدة . وسيلاحظ القاريء ان من يتصدى للتأليف دون ان يكون له رصيد فكري يخوله للكتابة يكون محل نقد لاذع وهجوم مركز وهذا ما ندد به العلامة الشوكاني وغيره على أمثال هؤلاء الذين يحترفون الكتابة دون أن تكون لهم الشروط الاساسية لمزاولة هذه المهنة وما يترتب عليها من تحريف وتصحيف للحقائق .

والحقيقة أن التأليف والكتابة يفتقران الى الخلفية الثقافية العامة اولا ومن ثم الاستناد الى المراجع الموثوقة ثانياً ولهذا نجد أن تجشم الصعاب والتنقل من بلد الى آخر للوقوف على مرجع ماكانت ظاهرة اتصف بها اولئك العلماء ومنهم ابو بكر بن الأخشاذ وغيره والله الموفق .

أحمد عبد الرزاق الرقيحى

صنعاء في ١٩٨١/١/١٢ م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وبه نستعين ونصلي على رسوله الأمين صلى الله عليه وآله وسلم وبعد فهذا جمع لطيف حوى أخبار الكتاب وما له من مكانة واهتمام عند علمائنا المسلمين وكنت قد ترصدت اخباره وتتبعت آثاره حتى أتى هذا المؤلف المختصر .

ولم أعن فيه العناية المطلوبة ولا أردته تأليفا كتلك التآليف العصرية ، وانما سلكت فيه اسلوب علمائنا القدامى من حيث الجمع والتبويب وهي طريقة أجلها وأراها أوفى بالمقصود من قاعدة المتأخرين ، وهي أكثر صعوبة ووعورة من غيرها ، وذلك أنها لا تأتي الا بعد جمع

مادة كبيرة حول الموضوع وتتبعها في بطون الامهات الكبيرة .

فاذا كنت قد وفقت فيما سعيت اليه فذاك هو المقصود .

وان لم يكن كذلك فاني استعيذ بالله من الشيطان الرجيم وسوء المنقلب وأبوء له بذنبي انه لا يغفر الذنوب الا هو .

مدح الكتاب

كان للكتاب مكانة كبيرة في الحضارة الاسلامية وقد اتفق على مدحه والثناء عليه جمهورهم من العلماء والمتعلمين وقال شاعرهم الأول أبو الطيب المتنبي :

أعز مكان في الدنى سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب

وقال كاتبهم الاول الجاحظ :
« الكتاب نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعدة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس لساعة الوحدة ونعم المعرفة

ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل والوزير والنزيل ، والكتاب وعاء مليء علماً ، وظرف حشي ظرفا ، وإناء شحن مزاحا وجدا إن شئت كان أبين من سحبان وائل وان شئت كان اعيى من باقل ، وان شئت ضحكت من نوادره وعجبت من غرائب فوائده ، وان شئت الهتك نوادره ، وان شئت شجتك مواعظه ، ومن لك بواعظ مثله وبزاجر مفر وبناسك فاتك وبناطق اخرس وببارد حار ، ومن لك بمؤنس لا ينام الا بما تهوى آمن من الارض وأكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة » .

وقال عبد الله بن المعتز « الكتاب والسج للابواب جرىء على الحجاب مفهم لا يفهم وناطق لا يتكلم .

وقال المعافى بن زكريا « الكتاب حاضر نفعه مأمون ضره ينشط بنشاطك فينبسط اليك ويمل بملالك فينقبض عنك ان ادنيته دنا وان أنأيته نأى لا يبغيك شرا ولا يفشيك عليك سرّا » .

وقال المأمون « لا شيء آثر للنفس ولا أشرح للصدر ولا أوفى للعرض ولا أذكى للقلب ولا أبسط للسان ولا أشد

للجنان ولا أكثر وفاقا ولا أقل خلافا ولا أكثر عبارة من كتاب تكثر فائدته وتقل مؤونته وتسقط غائلته وتحمد عاقبته وهو محدث لا يمل وصامت لا يخل وجليس لا يتحفظ ومترجم عن العقول الماضية والحكم الخالية والامم السالفة يحيى ما أماته الحفظ ويجدد ما أخلقه الدهر ويبرز ما حجبته الغباوة ويصل اذا قطع الثقة ويدوم اذا خان الملوك .. »

الى غير ذلك من عبارات تبين فضل الكتاب ومكانته عندهم ولهم في مدحه الاشعار الكثيرة من ذلك القول محمد بن بشير الرياشي :

اقبلت أهرب لا آلو مباعدة
في الارض منهم فلم يحصنى الهرب

وقال أبو هفان :

اذا آنس الناس ما يجمعون
آنست بما يجمع الدفتر
له وطري وله لذتي
على الكاس والكأس لا تحضر

وقال أبو الحسن علي بن هارون النديم :

اذا ما خلـــوت مـــن المؤنسيـــن
جعـــلت المحدث لي دفتـــري
فلـــم أخـــل من شاعـــر محسن
ومـــن مضحك طيب منـــدر
وان ضـــاق صـــدري بأسراره
وأودعتـــه السر لم يظهـــر

وقال أبو هلال العسكرى :

وجليـــس حسن المحـــضر مأمـــون المغيب
ميت يخبر حيـــا
بخفيـــات الغـــريب
ابلـــه غير لبـــيب
وهـــو في حال اللبـــيب
جاهـــل غير أديب
وهوعـــون للاديب
أخـــرس غير خطـــيب
ولـــه لفـــظ الخطـــيب

صناعة الكتاب

تطور فن الكتابة في الحضارة الاسلامية وصار علما رائجا له رجاله وخبراؤه فمن ناحية كان العلماء يغذون المكتبة الاسلامية بالعديد من المؤلفات العلمية ومن ناحية أخرى كان النساخ والوراقون بحشدهم الكبير يدأبون في استحصال تلك الكتب وقد زاحم هؤلاء جماعة العلماء . وهم جمهور واسع ضم كل من له قدرة على الكتابة وما يتصل بها من وراقة وتجليد وفن مكتبي الى غير ذلك وربما زاحم بعضهم جماعة العلماء من حيث المكاسب المادية كما سيتضح لنا فيما بعد .

ولهذا السبب اصبح فن النساخة فنًّا اسلاميا حضاريا له رجاله وصنّاعه . ولعلّي لا أغالي اذا قلت إن هذه الصناعة كانت من أهم الآثار الخالدة للحضارة الاسلامية وأكثر

ايجابية من تلك المآثر الشامخة التي خلفتها حضارات ماقبل الاسلام ، فالكتاب هو الكسب العظيم للمسلم في كل عصر ومكان .

النساخة

قلنا إن النساخة تحولت الى صناعة اسلامية عريقة لها آلاتها ومستلزماتها . وحبذا لو وقفنا قليلًا عند تلك الأدوات التي يتكون منها هذا الفن . ففي عصر المخطوطات تكون هذه الأدوات هامة جداً ولا أدل على ذلك من تركيز علماء هذا الفن على ذكرها والاشادة بها .

فأول هذه الأدوات هي المحبرة وهي « أم آلات الكتابة وسمطها الجامع » كما يقول القلقشندى في صبح الأعشى(١) وكانت تتخذ من أجود العيدان كالأبنوس والساسم والصندل ثم غلب على المتأخرين استعمالها من النحاس الأصفر والفولاذ وتغالوا في أثمانها ، حتى قال الامام

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٤١

أحمد بن حنبل في مدحها « هذه شرح الاسلام »(١) وقال الشافعي « لولا المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر »(٢) وقد عابوا على من يحضر مجالس العلم بدون محبرة فقال الزهرى « من خرج من بيته بلا محبرة فقد نوى الصدقة من بيته »(٣) وقال على بن المدينى « تدرون من الطفيلى ؟ الذي يكتب من محابر الناس »(٤) وقال الشافعي « من حضر مجلس العلم بلا محبرة كمن حضر الطاحونة بلا طعام » .(٥)

على أنهم قد أباحوا بعض ذلك وجوزوا أن يستعين طالب العلم بمحبرة زميله وقد سأل أحدهم الامام احمد بن حنبل ان يرخص له في الأخذ من محبرته فقال له اكتب يا هذا فهذا ورع مظلم(٦)

وكانوا ينكرون على الطلبة اذا تركوا محابرهم فقال أبو عبد الله الفقيه المراغى :

---

١ ــ السمعانى : أدب الاملاء والاستملاء ص ١٥٢
٢ ــ المصدر السابق ص ١٥٣
٣ ــ السابق ص ١٥٥
٤ ــ السابق ص ١٥٦
٥ ــ سابقه ص ١٥٦
٦ ــ سابقه ص ١٥٧ (مثله في فتح المغيث ص ٥٢)

اذا رأيت شبـــــاب الحى قد نشأوا
لا ينقلـــون قلال الحبر والورقـــــا
ولا تراهم لدى الأشياخ في خلـــق
يعــون من صالح الأخبــار ما اتسقــا
فدعهـــم عنك واعلـــم أنهم همج
قد بدلــوا بعلــو الهمــة الحمقـــا

وقال أبو القاسم العلوى في وصف محبرة :

ماء كقطـــع الليـــل في لونـــه
تنزحـــه اقلامنـــا من قلـــيب
قطر النـــدى ينـــبت زهـــر النـــدى
وهـــذه تنـــبت زهـــر القلـــوب
خواطـــر القـــلب اذا ما صغت
تخبر عمـــا في حجـــاب الغيـــوب
نحوكـــه وشيـــا باقلامنـــا
فبعضنـــا مخط وبـــعض مصيب

وقال أبو هفان :

آلة المجلس الظريـــــــــــف اذا ما
كنت فيـــه الـــدواة والأقـــلام
يتهادى فيـــه البلاغـــة والاداب
منشورهـــا معـــا والنظـــام

وقال على بن الصباح :

دواة حديـــد زيـــن اللـــه خلقهـــا
يكـف فتـــى حلـــو الكتابـــة حاذق
تديـــر العطايـــا والمنايـــا حرابها
اذا طعـــنت في شاكـــلات المهـــارق

وسئل وراق فقيل له ماتشتهى قال « قلما مشاقا وحبرا براقا وجلودا رقاقا » (١)

وقال بعض المحدثين في محبرة :ـــ

ولقـــــد غدوت الى المحدث آنفـــا
فاذا بحضرتـــه ظبـــاء رقـــع

---

١ ـــ الصولى : ادب الكتاب ص ٩٥

واذا ظبـــاء الأنس تكـــــتب كل ما
يملى وتحفـــظ ما يقـــــال وتسمـــــع
يتجاذبـــــون الحبر من ملمومـــــــة
بيضاء تحملهـــا علائـــــق اربـــــع
من خالص البلـــــــــــور غير لونها
فكـــأنها سبـــج يلـــــوح ويلمـــــع
ان نكسوهـــــا لم تمل ومليكهـــــا
فيمـــا حوتـــه عاجـــلا لا يطمـــــع
ومتـــــى امالوهـــــا لرشف رضابها
اداة فوهـــــا وهـــــي لاتتمنـــــــع
فكـــــــــــأنها قلب رصين سره
ابـــدا ويـــــكتم كل ما يستـــــودع
يمتاحهـــا ماضى الشبـــــاة مذلـــــق
يجرى لميـــــدان الطـــــروس فيسرع

ولبعض الكتاب في شروط الدواة « ان تكون متوسطة في قدرها نصفا في قدها فتقصر لا باللطيفة جدا فتقصر اقلامها ولا بالكبيرة فيثقل حملها وان يكون عليها من الحلية اخف ما يتهيأ أن تتحلى الدوى به من وثاقة ولطف صنعة

ليأمن أن تتكسر وتنفصم منها عروة في مجلس رياسة أو مقام محنــة وأن تكون الحلية ساذجة لا حفر ولا ثبات فتحمل »(١) ... الخ .

وفضلوا الكتابة بالحبر على المداد وهو المداد الأسود وجوزوا الكتابة ايضا بماء الذهب وقالوا الكتابة بالأحمر شعار الفلاسفة والمجوس(٢) .

ويجب أن يكون الحبر براقا جاريا والقرطاس نقيا صافيا والحبر ابقى الألوان على مر الدهور والأزمان وهو آلة ذوى العلم وعدة اهل المعرفة(٣) وقد اراد احدهم ان يكتب كتابا بماء الذهب فاستشار في ذلك مؤلفه فقال له « اكتبه بالحبر فانه انقى الألوان »(٤) .

ومن طريف مايذكر أنه جرت مفاضلة بين الألوان عند الخليفة هارون الرشيد فقال بعضهم احسنها البياض لون النهار وقال آخرون احسنها الخضرة لون الجنة وقال اخر

---

١ ــ المصدر السابق ص ٩٦

٢ ــ السخاوى : فتح المغيث ص ٥٥٢

٣ ــ السمعانى : ادب الاملاء ص ١٤٨

٤ ــ المصدر السابق ص ١٤٩

احسنها لون الذهب والفضة ومحمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة حاضر في المجلس فقال له الرشيد لم لاتتكلم فقال افضلها السواد لو كان صبغ احسن من السواد لكتبت به كتب الله المنزلة فاستحسن الرشيد قوله ووصله من بينهم .(١)

ومدح أبو عبد الله البلوى الحبر بقوله :

مداد المحابـــــــر طيب الرجـــــــال
وطـــيب الـــنساء من الزعفـــــران
فهـــــذا يليـــــق باثـــــواب ذا
وهـــــذا يليـــــق بثـــــوب الحصان

وربما يقع الحبر على ثوب الناسخ فقال الشاعر أحمد بن يحيى في هذا المعنى :

لا تجزعـــــن من المداد ولطخـــــــه
ان المداد خلـــــوق ثوب الكـــــاتب
وابهج بذلك انما هو زينـــــــــــــة
هبـــة من اللـــه الجليـــل الـــواهب

---

١ ــ المصدر السابق ص ١٤٨

وشم المداد لكـــــاتب في ثوبـــــه
سمة تلـــوح له بحسن منـــــاقب(١)

وقال أبو حفص عمرو بن عثمان الجنزى :

لاتحقـــــرن الحبر في ثوب امـــــريء
فالحبر فيـــه من خلـــوق العـــالم
كالخال نقـــــــط في خدود كواعب
بدم الفـــــــــؤاد المستهام الهائم

ويكثر في مجالس العلماء والنساخ دلق المحابر على ثيابهم فربما وقعت لذلك حوادث طريفة اخبرنا عن بعضها العلامة عبد الكريم السمعاني قال حدثنى أبو العباس الجمال أنه سمع شيخا من ناحية روذة يقول جالست العلا بن عبد الجبار وكنت صبيا مؤذنا كنت أزاحمهم بركبتى لقربى منهم فقربت من العلا وفي يدى محبرة قد لزقت وأس المحبرة بالحبر وعلى العلا ثياب بيض دقاق ذات ثمن كبير فجذبت المحبرة فاندلق عامة ذلك الحبر على ثوبه ووجهه

---

١ ــ السابق ص ١٥١ وفي ادب الكتاب للصولى ص ١٠٣ .

ولحيته قال فاخرجني عمي من مجلسه باذني فقال العلا لا تضربه فانه لم يتعمده ثم دخل فلم يلبث أن خرج وعليه قميصان بخلاف ماكان قبلهما من الجودة والبياض والحسن فجلس ثم إنا جلسنا اليه بعد ايام فاذا قد خرج وعليه القميصان اللذان اصابه الحبر يومئذ من يدى فقال له عمي فبأي شيء غسلتهما فاتى فعاوده فقال امرت ان يغسلا بحماضة الأترج فكتبه عمي في دفتره .(١)

وقد شرح لنا السمعانى عدة وصفات لاخراج المداد من الثياب ومثله الملك الرسول يوسف بن عمر صاحب اليمن المتوفى سنة ٦٩٤ في كتابه « المخترع من فنون الصنع » الذي خصصه في صناعة الكتاب وأدواته ومن فصوله يتبين لنا أهم المواد التي يحتاجها الناسخ .

فالباب الأول في القلم والثاني في عمل اجناس المداد والثالث في عمل الليف وتكوين الصباغات والرابع في الكتابة بالذهب والفضة والخامس في وضع الأسرار في الكتب وما يمحو الدفاتر والرقوق والسادس في غراء المجلدين

---

١ ــ المصدر السابق ص ١٥١ ينسبها لحمد بن مهران

وغراء السمك والزاق الذهب والفضة والسابع في تجليد الكتب وآلاتها والثامن في معرفة الوان الحرير على اختلافها والتاسع في معرفة قلع الاثار والصبوغات من الثياب وعمل الصابون .... الخ(١)

وأنت تحس في هذا الكتاب وغيره مدى التطور الذى وصلته صناعة الكتاب في الحضارة الاسلامية وهذا عام في سائر البلدان الاسلامية .

ومادمنا بصدد الحديث عن المداد فلا بأس ان نشير هنا الى ماكان يجرى من نظم للشعر عند مهاداتهم لأدوات الكتابة كالحبر والأقلام وغيرهما وفي ذلك يقول الشاعر أبو الحسن ناجيه بن محمد الكاتب وقد اهدى اليه احدهم مدادا مع غلام يقال له ابزون .

امددتنـــــى بمداد كلـون ابـــزون بادى
كمسكنيك جميعـــا من ناظـرى وفـؤادى
اكـــرم به من سواد مبـــيض لسواد(٢)

---

١ ــ انظر كتاب مصادر الفكر الاسلامي في اليمن ص ٥٥٢
٢ ــ السمعانى : ادب الاملاء ص ١٦٤

وبعث أبو نصر احمد بن عبد الله البلخى الى أحدهم محبرة ليضع فيها حبرا فتأخرت عنده يومين فقال :

يا سيـــدى ان السمـــاح مفخـــره
والشعـــر فيـــه أدب وتذكـــره
والمطـــل عنـــد العقـــلاء منكـــره
وهاهنـــــا لطيفـــــة مختصره
ان لـــم يكـــن حبـــرا فـــرد المحبـــره(١)

وشكا بعض الكتاب ان دواته بلا مداد فقال لبعض اخوانه يطلب مدادا

انـــا اشكـــو الـــيك ان دواتي
وهـــي عونى في حاجتـــي وعتـــادى
عطـــبت من مدادهـــا واستعـــاصت
يقـــق(٢) اللـــون من حلـــوك السواد
لم تزل من بنـــــات حام فصارت
من بنـــــــي يافث بغير ولاد

---

١ ــ المصدر السابق ص ١٦٤
٢ ــ يقق محركة شديد البياض

انت للحادثـــــــات عدة صدق
خلت ان تمدهـــــــا بمداد(١)

وقد كرهوا كثرة الاقلام داخل المحبرة فقال أحدهم

لأحب الـــــدواة تحشى يراعـــــاً
تلك عنـــدي من الـــدوي معيبـــه
قلـــم واحـــد وجـــــودة خط
فاذا شئت فاستـــــزد انبوبـــه(٢)

ويقال ألقت الدواة ألاقة اذا ادرت كرسفها ــ وهو القطن أو الصوفة داخل المحبرة ــ حتى تسود قال الشاعر :

اذا نحن وجهنـــا اليكـــم صحيفـــة
أَلْقَنَـــا الدوايـا بالدمـوع السواجـــم

وقال بعض الكتاب ليكن الكرسف في نهاية مايكون

---

١ ــ الصولى : ادب الكتاب ص ٩٣
٢ ــ المصدر السابق

السواد ولتكن الليقة التي فيها الكرسف في نهاية اللين والنعمة .

أما القلم فهو أحد آلات الناسخ ينبغى أن يكون صلبا لمنع سرعة الحري ولا يكون رخوا فيسرع اليه الجفا ويجب أن يتخذ املس العود مزال العقود وتوسع فتحته وتطال جلفته وتحز قطته ويحمد فيه القصب الفارسى وخشب الأبنوس الناعم وقد زعم بعضهم ان القلم الذي آخره عقدة يورث الفقر ولهم فيه اوصاف كثيرة قال أبو دلف « القلم أحد اللسانين وقال ابراهيم بن العباس القلم الردىء كالولد العاق . ومنهم من فضله على السيف .

وقال القاضى أبو يعلى عبد الباقى بن أبي حصين :

واطـــلس يحكـــى راسه ناب اطـــلس
ألـــمَّ به السكين في موضع الذبـــــح
تراه مكبـا يجتنـــى حنـــدس الدجـــى
ويطرحـــه نثرا على صفحـــة الصبـــح

وقد توسع الصولى في وصف القلم نثرا وشعرا من ذلك ما نقله عن أحمد يوسف قوله « القلم لسان البصر

يناجيه بما استتر »

وقال ابن المقفع « القلم بريد القلب »
وقال أبو دلف « القلم صائغ الكلام »

ولهم في ذلك اقوال كثيرة وكتب عبد الله بن طاهر الى اسحاق بن ابراهيم من خراسان الى بغداد كتابا يطلب منه اقلاما قصبية يقول فيه « اما بعد فانا على طول الممارسة لهذه الكتابة التي غلبت على الاسم ولزمت لزوم الوشي فحلت محل الأنساب وجرت مجرى الألقاب وجدنا الأقلام القصبية اسرع في الكواغد وامر في الجلود كما ان البحرية منها أسلس في القراطيس وألين في المعاطف ونحن في بلاد قليلة القصب ردي ما يوجد منها فاحببت ان تتقدم في اختيار اقلام قصبية وتتأنق في انتقائها قبلك وتطلبها من مظانها ومرامها من شطوط الأنهار وارجاء الكروم وان تتيمم باختيارك منها الشديد المجس الصلبة المغص النقية الجلود الغليظة الشحوم المكتنزة اللحوم الضيقة الأجواف الرزينة المحمل فانها ابقى على الكتاب وابعد من الحفا وان تقصد بانتقائك الدقاق القضبان اللطاف المنظر المقومات الاود

الملس العقد فلا يكون فيه التواء عوج ولا امت »[1] ... الخ .

ويقول الصولى « قبل المختار من برى القلم ان تطيل السنين وتسمنها وتحرف القطة وتيمنها » .

ولهم في ذلك نصائح وأحاديث كثيرة يجدها القارىء في (صبح الأعشى) ، وكتاب (ادب الاملاء) وكتاب (ادب الكتاب) وغيرها .

والاتيان بشيء من هذا لا يضيف جديدا على بحثنا .

فـــن النساخـــة

واذا خرجنا عن دائرة الحديث في ادوات النساخة سنجد فن النسخ قد ترسخ في الحضارة الاسلامية من خلال المهنة التي تعاطاها اجيال متعاقبة من الكتاب المحترفين لهذا الفن وقد وضع العلماء آدابا وشروطا يحتذيها

١ — ادب الكتاب ص ٦٩

النساخ من بعدهم فمن آدابهم ما ذكره ابن جماعة الذي يقول في اثناء حديث له عن ذلك « اذا نسخ الناسخ شيئا عن كتب العلوم الشرعية فينبغي أن يكون على طهارة مستقبل القبلة طاهر البدن والثياب بحبر طاهر ويبتدىء كل كتاب بسم الله الرحمن الرحيم ، فاذا كان الكتاب مبدوء فيه بخطبة تتضمن الحمد لله تعالى والصلاة على رسوله كتبها بعد البسملة والإكتب هو ذلك »(١).

ويقول « لابأس بكتابة الأبواب بالحمرة فانه اظهر في البيان وفي فواصل الكلام وكذلك لابأس به على اسماء أو مذاهب أو أقوال أو طرق أو أنواع أو لغات أو أعداد أو نحو ذلك ومتى فعل ذلك بيَّن اصطلاحه وفاتحة الكتاب ليفهم الخائض فيه معانيها وقد رمز بالأحمر جماعة من المحدثين والفقهاء والأصوليين وغيرهم لقصد الاختصار »(٢) .

وقد وضع العلماء في مجال الاختصار رموزا فهموا منها الدقة والصحة فقد ذكر ياقوت ابراهيم بن زكريا الزهري

---

١ ــ ابن جماعة : تذكرة السامع مع المتكلم في ادب العالم والمتعلم ص ١٧٣
٢ ــ المصدر السابق ص ١٩١

« ان شيوخنا من أهل الأدب يتعالمون ان الحرف اذا كتب عليه صح بصاد وحاء ان ذلك علامة لصحة الحرف لئلا يتوهم متوهم عليه خللًا ولا نقصا فوضع حرف كامل على حرف صحيح واذا كان عليه صاد ممدودة دون حاء كان علامة أن الحرف سقيم اذا وضع عليه حرف غير تام ليدل نقص الحرف على اختلاف الحرف ويسمى ذلك الحرف ايضا ضبة اي ان الحرف مقفل بها لم يفهم »(١) .

ويعلق ياقوت على كلام الزهرى بقوله « هذا كلام عليه طلاوة وانما قصدوا بكتبهم على الحروف صح ان كان شاكا في صحة اللفظة فلما صحت له بالبحث خشى ان يعاوده الشك فكتب عليها صح شكه »(٢) وتكثر اختصاراتهم وخاصة في كتب الفقه والعقائد .

وقد اشاروا الى الفواصل والدوائر كما هي عادة المتأخرين في كتبهم فقال ابن جماعة « وينبغي أن يفصل بين كل كلامين بدائرة أو ترجمة أو قلم غليظ ولا يوصل الكلام كله على طريقة واحدة لما فيه من عسر استخراج المقصود

---

١ ــ ياقوت : ارشاد الأديب ج ١ ص ٢١٦

٢ ــ نفس المصدر والصفحة

وضياع الوقت ولا يفعل ذلك الا غبى جدا »(١) .

والنساخ هم أكثر الناس اتقانا لفن الكتابة وربما لم يكتف بلون واحد من الوان الحبر فهذا الناسخ محمد بن عبد الله بن غطوس المتوفى سنة ٤١٤ « كان يضع لكل ضبط لونا من الألوان لا يخل به فاللازورد للشّدات والجزمات واللك للضمات والفتحات والكسرات والأخضر للهمزات المكسورة والأصفر للهمزات المفتوحة لايخل بشيء من ذلك »(٢) .

ويقول الصفدى في وصف طريقة هذا الناسخ « وهو شيء غريب من حسن الوضع ورعاية المرسوم ويقال انه كتب الف مصحف ولم يزل الملوك الكبار يتنافسون فيها وقد آلى على نفسه الا يكتب حرفا الا من القرآن وكان له بيت فيه آلة النسخ والرقوق وغير ذلك لا يدخله احد من أهله ، يدخله ويخلو بنفسه وكان مصحفه لايهديه الا بمائتي دينار وإن انسانا جاء اليه من بعيد مسافة وأخذ منه مصحفات ولما كان بعد مدة فكر انه وضع نقطا أو خطا

---

١ ــ ابن جماعة : المصدر السابق ص ١٩١

٢ ــ الصفدى : الوافى بوفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٥٢

على بعض الحروف في غير موضعه وأنه سافر الى تلك البلد وأتى الى ذلك الرجل وطلب المصحف منه فتوهم انه رجع في البيع فقال قبضت الثمن منى وتفاصلنا فقال لابد أن أراه فلما أتى به حك ذلك الغلط وأصلحه وأعاده الى صاحبه »(١) وهذا غاية ما يصل اليه ناسخ من دقة في ضبط ما يكتبه .

وقد ذكر الجاحظ ان الزنادقة كانوا قد عرفوا بزخرفة كتبهم فكانوا يختارون لها الحبر الأسود المزوق البراق والورق النقي الأبيض(٢) .

وعندما أحرقت كتبهم سنة ٣١١ سقط منها ذهب وفضة مما كان على هذه الكتب وكان قدراً كبيراً وقد قلدهم اصحاب الحلاج من غلاة المتصوفة في ذلك فكانت كتبهم تكتب على ورق صينى وبعضها بماء الذهب ويبطن بالديباج والحرير ويجلد بالادم الجيد .(٣)

على أن النساخ قد استمروا في كتابة القرآن وزخرفته

---

١ ــ المصدر السابق نفس الصفحة

٢ ــ الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ٥٥

٣ ــ متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٣٢٧

بالعديد من الألوان وعندما اهديت الى الوزير نظام الملك نسخة من القرآن الكريم بخط احد النساخ المجيدين كان قد كتب اختلاف القراء بين سطوره بالحمرة وتفسير غريبه بالخضرة واعرابه بالزرقة وكتب بالذهب علامات على الآيات .(١)

ومن النساخ من تخصص في كتابة عناوين الكتب كما هو الحال عند بعض النساخ المعاصرين وحيث يحرص اكثر أهل المطابع على كتابة عناوين كتبهم بالخط النسخي الجميل .

فهذا الناسخ ابراهيم بن احمد الزرعى يقول عنه الصفدي انه كتب الخط المنسوب المليح الى الغاية وكانت له قدرة على حكايات الخطوط ومناسباتها ويحمل اليه الناس الكتب ليكتب اسماءها بحسن خطه .(٢)

وقد كره بعض العلماء الكتابة بالخط الدقيق أو الرقيق لاسيما اذا كبر صاحبه وصار لا يقدر على رؤية الأشياء

---

١ ــ السبكى : طبقات الشافعية ج ٣ ص ٣٣٠

٢ ــ الصفدى : الوافى ج ٥ ص ٣٠٩

الا بصعوبة حتى قال ابن حجر العسقلاني ربما كان الناسخ بالخط الدقيق قصير الأمل لا يؤمل ان يعيش طويلا(١).

ويقول ابن الجوزى « يكره تضييق السطور وتدقيق القلم فان النظر الى الخط الدقيق يؤذى النظر . وكان بعضهم يضيق السطور لعدم الكاغد « الورق »(٢).

ومع ذلك فالنساخ غالوا في دقة الخط ومنهم من كتب صحيح البخارى باجزائه الكثيرة في مجلد لطيف كاتبى عبد الله محمد بن عبد الله الصورى المتوفى الذي كتب صحيح البخارى ومسلم في مجلد لطيف بيع بعشرين دينارا وكان في الوجهة عن ثمن الكاغد الخراساني ثمانون مسطرا .(٣)

وكان الخطاط اسماعيل المعروف بالزمكحل المتوفى سنة ٧٨٨ « قد انتهت اليه رئاسة الكتاب وأجاد كتابة الخط الدقيق الى الغاية بحيث لا يطمس واوا ولاميما فلم يكن يدركه احد في ذلك حتى كان يكتب سورة الاخلاص على

---

١ ــ السخاوى : فتح المغيث ص ٥٤٨

٢ ــ ابن رجب الحنبلى : الاداب الشرعية ج ٣ ص ١٩

٣ ــ السخاوى : فتح المغيث ص ٥٤٨ ومثله في تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٠٣

ارزة وكتب من المصاحف شيئا كثيرا وخطه غاية في الحسن »(١) .

وربما جوز بعض العلماء الكتابة بالخط الدقيق لضيق القرطاس الذي يكتب فيه أو أن يكون فقيراً لايجد ثمن ما يشترى به الورق او كثير الأسفار يريد حمل كتبه معه فيحتاج اما لصغره أو لكونه اضبط ان تكون خفيفة الحمل . وكان الفقيه محمد بن المسيب الارغياني يمشي في الطرقات وفي كمه مائة جزء صغير ، في كل جزء الف حديث وقد سئل عبد الله بن أحمد بن روزبة الفارسى رحمه الله عن سبب دقة خطه فقال لقلة الوَرَق والوَرِق وخفة الحمل على العنق .(٢)

وقد عابوا عليهم ايضا خط التعليق وهو فيما قيل خط الحروف التي ينبغى تفرقتها واذهاب اسنان ما ينبغي اقامة سنه وطمس ما ينبغي اظهار بياضه . وكذلك عابوا عليهم خط المشق وهو خفة اليد وارسالها مع بعثرة الحروف وعدم اقامة الأسنان (٣) .

---

١ ــ ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٨٥

٢ ــ انظر السخاوى في كتابه السابق ص ٥٤٨ وما بعدها

٣ ــ المصدر السابق

وقد اعتذر لهم الماوردى بقوله « لفرط ادلالهم بالصنعة » وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالاشارة ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء شروط الأمانة تقصيرا »(١).

وقد صرح بعكس ذلك ابن المدبر في رسالته العذراء فقال ناصحا الناسخ « ولا تجعل سحاة كتبك غليظة الا في العهود والسجلات التي تحتاج الى خواتمها وطرائقها »(٢).

بل نجده قد انكـــر على النســاخ تنقيطهم الكتب فقال :

« واياك النقط والشكل في كتابك الا ان تمر بالحرف المعضل الذي يعلم أنّ المكتوب اليه يعجز في استخراج معماه فلأن يشكل عليه الحرف احب الي من ان يعاب بالنقط والاعجام وقد قال المأمون اياكم والشونتر في كتبكم يعنى النقط »(٣).

---

١ — المصدر السابق نقلا عن كتابه ادب الدنيا والدين

٢ — ابن المدبر الرسالة العذراء ص ١٨٤ ضمن رسائل البلغاء

٣ — المصدر السابق ص ١٨٣

ومع ذلك سنجد أهل الحديث يصرون على وجوب الشكل والاعجام وقد قال سفيان الثوري « الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة »(١) وقال الاوزاعى « نور الكتاب العجم ».

وربما جرَّ النساخ الى عدم ضبط الكتابة وشكلها هو سرعتهم بغية الكسب السريع ولهم في ذلك غرائب طريفة تحدثت عنها كتب التراجم فقد ذكروا عن الفقيه محمد بن مملاذ المتوفى سنة ٦٤٣ انه كان يكتب في يوم واحد ست عشرة كراسة قطع الثمن وكان ينشى الرسالة معكوسة يبتدىء بالحمد ويختم بالبسملة لفرط السرعة(٢).

ومنهم أحمد بن عبد الدائم الفندقي المتوفى سنة ٦٦٨ كان يكتب اذا تفرغ تسع كراريس او اكثر ويكتب الكراسين والثلاث مع اشتغاله في يوم وليلة . حتى قيل انه كان يكتب كتاب القدورى في الفقه الحنفى ـــ وهو من الكتب المتوسطة الحجم ـــ في ليلة واحدة . يقول الصفدى « وعندى ان هذا مستحيل » وقيل كان ينظر

---

١ ـــ السخاوى : فتح المغيث ص ٥٤٤

٢ ـــ الصفدى : الوافى ج ٥ ص ٦٣

في الصفحة نظرة واحدة ويكتبها يقول الصفدى ايضا « ولذلك يوجد له الغلط فيما يكتبه كثيرا ولازم النساخة خمسين سنة وخطه لا نقط فيه ولا ضبط »(١).

وكذلك العلامة محمود بن أحمد العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ « يقال إنه كتب كتاب القدورى في ليلة وانه كتب الحاوي في ليلة ايضا »(٢).

وثبت عن القاضى شرف الدين القناوى المتوفى سنة ٦٩٢ انه « كتب بمدة واحدة مائة وعشرين سطرا وقيل الى ثلثمائة سطر او مايقرب منها »(٣).

ويذكر عن ابن الفوطى انه مع « حسن خطه كان يكتب اربع كراريس في اليوم الواحد قال الصفدى « اخبرنى من رآه ينام ويضع ظهره على الأرض ويكتب ويديه الى وجهة السقف »(٤).

وكان الفقيه احمد بن عبد الدائم المقدس المتوفى سنة

---

١ ــ المصدر السابق ج ٧ ص ٣٥
٢ ــ السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ١٣٣
٣ ــ الصفدى : المصدر السابق ج ٣ ص ١٣٦
٤ ــ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٦٥

٦٦٨ « سريعا في الكتابة كتب ما لا يوصف من الكتب الكبار حتى كان يكتب في اليوم اذا تفرغ تسع كراريس واكثر ويكتب مع اشتغاله بمصالح الناس الكراسين والثلاث وكتب كتاب الخرقى في الفقه الحنبلى في ليلة واحدة »(١) .

وعرف عن الفيلسوف يحيى بن عدى المتوفى سنة ٣٦٤ وكان على دين المسيح كثرة النساخة قال نسخت تفسير الطبرى مرتين وعاتبه أحدهم على ملازمة النسخ والقعود فقال له « من أي شيء تتعجب أمن صبرى وقعودى لقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى وأنا اكتب في اليوم مائة ورقة وأقل »(٢) .

وممن عرف بسرعة النساخة من النساخ المحترفين لهذه المهنة محمد بن ابراهيم الطاهرى « كان يؤثر الانفراد والوحدة مع الجلادة على النسخ مع الاتقان والسرعة بحيث كان يكتب في اليوم الواحد خمس كراريس فاكثر فربما تعب

---

١ ــ ابن رجب الحنبلى : ذيل طبقات المقابلة ج ٢ ص ٣٧٩ ويحقق مع سميه الأول فلعلها رجل واحد .

٢ ــ القفطي : تاريخ الحكماء ص ٣٦١

فيضطجع على جنبه ويكتب وكتب بخطه من الكتب الكبيرة والصغيرة لنفسه ولغيره ما لا يدخل تحت الحصر كثرة خصوصا كتب التاريخ والتفسير ووجد له باخر نسخة من كتاب « النهر » لابي حيان انها الثانية والعشرين بعد المائة مما كتبه بخطه »(١) يقول السخاوى « ولسرعة كتابته وملازمته لها كان موسعا عليه » ومن عبارة السخاوي الأخيرة ندرك السر في حرص بعض النساخ على السرعة في الكتابة وقد رمى من ذلك الكسب العاجل . وربما تكونت عندهم ثروات كبيرة من هذا الفن .

وقد اعترف احدهم بثروته الكبيرة من النساخ فقال الحسن بن شهاب العكبرى احد النساخ في زمانه :

« كسبت من الوراقة خمسة وعشرين الف درهم راضية »(٢) .

وقال :

---

١ ــ السخاوي : الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٧٧

٢ ــ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٧ ص ٣١٩ ومثله في المنتظم لابن الجوزى ج ٨ ص ٩٢ وفي تذكره الحفاظ للذهبى ص ١٠٨٦

« كنت اشترى كاغدا بخمسة دراهم فأكتب فيه ديوان المتبنى في ثلاث ليال واربعه بمائتي درهم وأقله بمائة وخمسين درهما وكذلك كتب الأدب المطولة »

وعندما توفى هذا الناسخ أخذ السلطان من تركته ما قدره الف دينار سوى ما خلفه من الكروم والعقار .

وقد حاول بعض النساخ احتكار صنعته لكسب الأرباح الكبيرة وذلك في التخصص بنسخ بعض الكتب المطلوبة وعدم اعطائها للناس لنقلها فقد ذكر بعض المؤرخين انه « لما فرغ من املاء كتاب « المعاني » خزنه الوراقون عن الناس ليتكسبوا به وقالوا لا تخرجه الى أحد الا لمن اراد تنسخه له على خمس أوراق بدرهم فشكا الناس ذلك الى الفرا فدعا الوراقين فقال لهم في ذلك فقالوا انما صحبناك لننتفع بك وكل ما صنفته فليس بالناس اليه من الحاجة مابهم الى هذا الكتاب فدعنا نعيش به فقال قاربوهم تنتفعوا ويتنفعوا فعابوا عليه فقال سأريكم وقال الناس افي مملى كتاب « المعاني » أتم شرحا وأبسط قولا من الذي امليت فجلس يملى على الناس فاملى شرح الحمد لله في مائة ورقة فجاء الوراقون اليه وقال نحن نبلغ للناس ما

يحبون فنسخوا كل عشر ورقات بدرهم »(١).

وهكذا تكون أجورهم بقدر الأوراق او الكتب وهي تختلف باختلاف المكان والزمان ففي بعض الأوقات تنخفض هذه الأجور الى درجة نهائية وقد اعطى حنين بن اسحاق ورّاقه محمد بن الحسن المعروف بالأحول عشرين درهما على كل مائة ورقة (٢) مع سعة علم هذا الناسخ وتأليفه في فنه .

وأخذ العلامة أبو سعيد السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ هـ على أجرة نساخه على الورقة درهما « فكان لا يخرج الى مجلس الحكم ولا الى مجلس التدريس في كل يوم الا بعد أن ينسخ عشر ورقات يأخذ اجرتها عشرة دراهم تكون قدر مؤنته ثم يخرج الى مجلسه »(٣).

وقد مر بنا ما يتقاضاه الحسن بن شهاب العكبري على ثمن نسخة واحدة من ديوان المتنبي وهو أجر كبير بالنسبة لما سبق .

---

١ ــ الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٥٠

٢ ــ الصفدى : الوافى ج ٢ ص ٣٤٤

٣ ــ تاريخ بغداد ج ٧ ص ٣٤٢

وحدثنا الأديب محمد بن خلف المرزباني المتوفى سنة ٣٠٩ هـ عن شيء من أجور النساخ التي كان يحصل عليها نساخ زمانه فقال محدثا عن نفسه « مضيت الى الحارث بن ابي ساسه فوجدت في دهليز بيته قوما من الوراقين وهو يكتب اسماءهم على كل واحد درهمين فقلت له اكتب اسمى فكتب »(١) فالنساخ يتقاضون اجورهم على اليوم وليس على الورقة أو النسخة كما سبق ولعل اكبر مبلغ يمكن أن يحصل عليه ناسخ لا يأتى الا من قبل ملك أو أمير وكان ملوك مصر المماليك من هواة الخطوط الجميلة فكانوا يغدقون على النساخ بالالاف نظير اعمالهم الفنية وقد حدثنا الصفدى عن واحد من اولئك النساخ وهو الفقيه محمد بن شريف بن الوحيد الذي كتب ختمة للسلطان بيبرس الجاشنكيرى سلطان مصر في سبعة أجزاء بليقة ذهبية قلم الاشعار ثلث كبير قطع البغدادى ادخل فيها جملة من الذهب واعطى له السلطان برسم الليقة فقط الفا وستمائة دينار والفا واربع مائة وقيل للسلطان في ذلك فقال متى يعود اخر مثل هذا يكتب مثل هذه

---

١ — ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ج ٢ ص ١٥٨

الختمة »(١).

يقول الصفدى « وزمكها (٢) بالصندل المذهب رأيتها في جامع الحاكم وهي وقف بجامع الحاكم وما اعتقد أحداً يكتب مثلها ولا مثل تزميكها »(٣).

على ان النساخة ليست من الصناعات المربحة في كل وقت وحين ففي عصور يكون النساخ من اكثر فئات المجتمع بؤسا وقد وصفها ابو حيان بانها حرفة الشؤم(٤) وقال ابو حاتم الناسخ يصف حاله هو وزملاءه وقد عاش خمسين سنة بنيسابور ينسخ للناس :

ان الوراقـــــة حرفـــــة مذمومـــــة
محرومـــــــة يمشي بها زمـــــــن
ان عشت عشت ولـــــيس لي اكل
اومت مت ولـــيس لي كفـــــن(٥)

---

١ ــ الصفدى : الوافى ج ٣ ص ١٥١
٢ ــ لفظة عامية بمعنى زينها انظر شفاء الغليل ص ١٤١
٣ ــ الصفدى : المصدر السابق
٤ ــ ياقوت : معجم الأدباء (ارشاد الأديب) ج ٥ ص ٣٩٣ ط دار الهلال
٥ ــ متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ج ١ ص ٣٤٣

وعلى الناسخ ان يدأب في الكتابة والا مات جوعا يقول احدهم :

اذا كنت بالليل لا اكتب وطول النهار انا التعب
فطورا يبطلني مأكل وطورا يبطلني مشرب
فان دام هذا على ما أرى فبيتي اول ما يخرب(١)

وقد تحدثت كتب التاريخ عن كثير من هؤلاء النساخ وحالهم يختلف بين البؤس والنعيم ومن أغرب طرائفهم الناسخ محمد بن بكتوت المتوفى سنة ٧٣٥ انه كان يضع المحبرة بيده الشمال والمجلدة التي ينقل منها على زنده ويكتب وهو يغنى ماشاء الله ولا يغلط (٢).

وكتب الناسخ ابو اليسر ابراهيم بن احمد السنانى من أهل بغداد وكان قد قدم الى الأندلس نسخة من كتاب سيبويه كله بقلم واحد (من القصب) مازال يبريه حتى قصر فادخله في قلم آخر وكتب به حتى فنى بتمام الكتاب .(٣)

---

١ ــ الصولى : ادب الكتاب ص ٩٧
٢ ــ الصفدى : الوافى ج ١ ص ٣٥٧
٣ ــ المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٥ ط بولاق

وكان الفقيه أحمد بن على الحطيئة الفاسى قد دخل مصر مع أولاده فصادف بها مجاعة وكان لايقبل من أحد شيئا فاشتغل بالنساخة وعلم زوجته وابنته الكتابة فكانتا تكتبان مثل خطه ونسخ الكثير بالأجرة فاذا شرعوا في نسخ كتاب أخذ كل واحد جزءاً وكتبوه فلا يفرق بين خطهم الا الحاذق(١).

وغير بنات الحطيئة الفاسى عرفت ناسخة جيدة في المغرب وهي عائشة بنت الفقيه عمارة بن يحيى عمارة المتوفى سنة ٥٨٥ يقول الغبريني في وصفها « كانت أديبة اريبة فصيحة وكان لها خط حسن رأيت كتاب « يتيمة الدهر » للثعالبى بخطها في ثمانية عشر جزءا وهي نسخة خطية ثمينة ما رأيت احسن منها ولا اصح وقد رأيت من هذا الكتاب نسخا كثيرة منتقدة الا هذه النسخة ولهذا يجب أن تكون هذه النسخة اصلا لهذا الكتاب حيث كان »(٢) وقد اطنب الغبريني في وصف تلك النسخة .

ونعود الى ماكنا بصدده من الحديث عن النساخ

---

١ ــ الصفدى : الوافى ج ٧ ص ١٢١

٢ ــ الغبريني : عنوان الدراية ص ١٤٨

ونوادرهم في نسخهم فهذا العلامة محمد بن اسماعيل الحلبى المتوفى سنة ٨١٤ كانت له معرفة مدهشة وشوهد في غالب الأوقات يتلو القرآن في موضع ويكتب من موضع آخر وقارىء القرآن يقرأ عليه من آخر وكل ذلك في آن واحد فيصيب في ذلك تلاوة وكتابة ورد لا يفوته شيء في الرد مع الجودة في الكتابة والسرعة . وقد كتب بخطه كثيرا ويقول السخاوى عنه « وبلغنا انه قال كتبت مصحفا على الرسم العثمانى في ثمانية عشر يوما بلياليها في الجامع الأزهر سنة ٧٦٥ وأنه قال في اخر سنة ٨١٣ انه نسخ مائة واربعة وثمانين مابين مصحف وربعة جميع ذلك غيبا على الرسم العثماني » .(١)

ومن النساخ من لم يكتف بكتابة الكتب بل قام بتصويرها وقد حدثنا الصفدى عن واحد من هؤلاء وهو الناسخ المصور محمد بن أحمد بن صابر السلمى نسخ بعض الكتب ثم قام بتصويرها يقول « وتصويره أحسن وأعلى طبقة من خطه وكان مولعا بان ينسخ الكتاب ثم يصوره مثل كتاب (ديوان ابى نواس) ومثل كتاب

---

١ ــ السخاوى : الضوء اللامع ج ٧ ص ١٤٣

(فلك المعانى) لابن الهباريه وغير ذلك » ويقول الصفدى وملكت بخطه وتصويره كتاب (فلك المعانى) وفي آخره كتبه وصوره سنة ٦٢٨ .(١)

وللنساخ طرق عجيبة وحيل غريبة في ترويج عملهم وكان الناسخ الشهير على بن هلال بن البواب المتوفى سنة ٤٢٣ هـ على شهرته الكبيرة صاحب طريقة عجيبة في محاكاة الخطوط وقد حدثنا في نص طويل اورده ياقوت عن شيء من ذلك يدل على براعته في الحيل المستعملة عند النساخ في زمنه يقول :(٢)

« كتبت اتصرف في خزانة الكتب لبهاء الدولة عضو الدولة بشيراز على اختيارى وأراعيها له وامرها مردود الي فرأيت يوما في جملة أجزاء منبوذة مجلدة بأسود ففتحته واذا هو جزء من ثلاثين جزءاً من القرآن الكريم بخط ابي علي بن مقلة فأعجبني وأفردته فلم أزل أظفر بجزء بعد جزء مختلط في جملة الكتب الى أن اجتمع لدى تسعة وعشرون جزءاً وبقى جزء واحد استغرقت تفتيش الخزانة في مدة طويلة فلم

---

١ ــ الصفدى : الوافي بوفيات الأعيان ج ٢ ص ١١٣

٢ ــ انظر ياقوت الحموي : ارشاد الأديب ج ٥ ص ٤٤٦

اظفر به فعلمت ان الصحف ناقص فأفردته ودخلت الى بهاء الدولة وقلت يا مولانا هاهنا رجل يسأل حاجة قريبة لا كلفة فيها وهي مخاطبة ابي علي الموفق الوزير على معونته في منازعة بينه وبين خصم له ومعه هدية ظريفة تصلح لمولانا قال اي شيء هي قلت مصحف بخط ابى على بن مقلة فقال هاته وانا اتقدم بما يريد فاحضرت الأجزاء فاخذ منها واحداً وقال اذكر وكان في الخزانة ما يشبه هذا وقد ذهب عنى قلت هذا مصحفك وقصصت عليه القصة في طلبتي له جمعه وقلت هكذا يطرح مصحف بخط ابي على بن مقله الا انه ينقص جزءا فقال فتممه لي قلت السمع والطاعة ولكن على شريطة انك اذا ابصرت الجزء الناقص منها لاتعرفه تعطينى خلعة ومائة دينار قال افعل واخذت المصحف بين يدى وانصرفت الى دارى ودخلت الخزانة اقلب الكاغد العتيق وماشابه كاغد المصحف وكان فيها من انواع الكاغد السمرقندي والصينى والعتيق وكل ظريف وعجيب فأخذت من الكاغد ما وافقنى وكتبت الجزء ودهنته وعتقت داخله وقلعت جلدا من الأجزاء فجلدت به وجلدت الذي قلعت منه الجلد وعتقته ونسى بهاء الدولة

المصحف ومضى على ذلك نحو السنة فلما كان ذات يوم جرى ذكر ابى علي بن مقله فقال ماكتبت ذلك قلت بلى قال فاعطنيه فاحضرت المصحف كاملا فلم يزل يقلبه جزءاً جزءاً وهو لا يقف على الجزء الذي بخطى ثم قال لي ايما هو الجزء الذى بخطك قلت له لما لا تعرفه فيفتر في عينك هذا المصحف كامل بخط ابى على بن مقله ونكتم سرنا قال فافعل وتركته في ربعة عند رأسه ولم يعد الى الخزانة واقمت مطالبا بالخلعة والدنانير وهو يمطلنى ويعدنى فلما كان يوما قلت يامولانا في الخزانة بياض صينى وعتيق مقطوع وصحيح فتعطينى المقطوع منه كله دون الصحيح بالخلعة والدنانير قال خذه فاخذت جميع ماكان فيها من ذلك النوع فكثيت فيه سنين ».

ومن هذا النص الطويل نستشف بعضا من حيل النساخ في تقليد الخطوط وحيلهم في ذلك من مراعاة العتاقة في الورق والتجليد وغير ذلك .

وقد وضع ابن البواب المذكور رسالة في صناعة الخط ومهنته سنعرض لها فيما بعد .

وربما اضرت حيل النساخ بالانتاج العلمى وضايقت

العلماء في علومهم حتى قال من قال ان آفة العلم خيانة الوراقين(١) وكان العلماء الذين يحرصون على سلامة كتبهم ينسخون كتبهم بانفسهم ان استطاعوا وقد شكك ابن خلدون في صحة الخطوط الموجودة في عصره فقال :

« صارت الخطوط مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها الا المشقة والعناء لكثرة مايقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية عن الجودة حتى لاتكاد تقرأ الا بعد عسر ووقع فيه ماوقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدولة »(٢) .

ولعل اضر آفات النساخ على الكتب والكتابة هو مايأتى عن طريق الملل والكآبة فتأتى خطوطهم ناقصة مبتورة وقد ذكر عن أحدهم وهو الفقيه عبد الله بن اسعد الدهان المتوفى سنة ٥٨١ انه « كان ضيق العطن ماكتب تصنيفا الا اختصره برأيه ولا يذكر فيه انه اختصره »(٣).

---

١ ــ متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ج ص ٢٤٣

٢ ــ ابن خلدون : المقدمة

٣ ــ القفطى : انباه الرواة ج ٢ ص ١٠٣

ولهذا السبب وغيره لم يثق العلماء في الرجوع الى الكتب مباشرة دون الاستعانة بشيخ وقالوا « من كان شيخه كتابه كان خطأه اكثر من صوابه » وقد رد الأزهرى على العلامة احمد بن محمد البشتي في قوله في مقدمة كتابه التكملة انه رجع الى كتب دون العودة الى شيخ يقول البشتي في مقدمة كتابه المذكور بعد سرد جماعة من الكتاب « وأخبارنا عنهم اخبار عن صحف ولا يزرى ذلك على من عرف الغث من السمين وميز بين الصحيح والسقيم وقد حفل بمثل ذلك أبو تراب صاحب كتاب الاعتقاب فانه روى عن الخليل بن أحمد وأبى عمرو بن العلا والكسائي وبينه وبين هؤلاء فترة وكذلك القبتى روى عن سيبويه والأصمعى وابي عمرو وهو لم ير أحدا منهم »(١).

فقال الأزهرى في الرد عليه وعلى من يرجع الى الكتب دون الرواية المأخوذة عن الشيخ الموثوق بهم :

« قد اعترف البشتى بانه لاسماع له في شيء من هذه الكتب وانه نقل مانقل الى كتابه من صحفهم واعتل بانه

---

١ ــ المصدر السابق ج ١ ص ١٠٩

لا يزرى ذلك بمن عرف الغث من السمين وليس كما قال لأنه اعترف بانه صحفى والصحفي اذا كان رأس ماله صحفا قرأها فانه يصحف فيكثر وذلك انه يخبر عن كتب لم يسمع بها ودفاتر لا يدرى اصحيح ماكتب فيها ام لا وان اكثر ما قرأنا من الصحف التي لم تضبط بالنقط الصحيح ولم يتول تصحيحها اهل المعرفة لسقيمة لا يعتمد عليها الا جاهل »(١) .

ويقول في رده عليه في المحاكاة لشيوخ من قبله سبقوه في الرجوع الى الكتب دون رواية :

« وهؤلاء من الشهرة وذهاب الصيت في التأليف الحسن بحيث يغفر لهما عن خطيئة غلط ويندر له من يقع في كتبهما ولا يلحق بهما رجل من اصحاب الزوايا لايعرف الا قريته ولا يوثق بصدقه ونقله الغريب الوحشى من نسخة الى نسخة ولعل النسخ التي نقل منها ما نسخ كانت سقيمة والذي ادعاه البشتى من تمييزه بين الصحيح والسقيم ومعرفة الغث من السمين دعوى لا دليل عليها » .

---

١ ــ المصدر السابق ج ١ ص ١١٠

ولعلنا سنعود الى شيء من هذا في الحديث عن رجوعهم الى المصادر .

وكان العلماء يحرصون على سلامة النص اكثر من حرصهم على جمال الخط ويرون الوقت الذي يمضى في تحسين الخط يجب أن يصرف في الاعتناء بالنص نفسه ولهذا يقول ابن جماعة « وليست رداءة الخط التي لاتقضي الى الاشتباه بقادحة انما القادح الجهل » .

ويقول أيضا :

« ولا يهتم المشتغل بالعلم بالمبالغة في تحسين الخط وانما يهتم بصحيحه وتصحيحه » (١) .

ويقول أحدهم معتذرا عن رداءة خطه :(٢)

اعـــذر اخـــاك على رداءة خطـــه
واغفـــر رداءتـــه لجودة ضبطـــه
والخط ليس من تعظيمـــه ونظامـــه
الا اقامـــــة سمطـــــــه

---

١ ــ ابن جماعة : تذكرة السامع ص ٩٥
٢ ــ فتح المغيث ص ٥٥١

فاذا ابـــان عن المعـــانى خطـــه
كانت ملاحتـــه زيـــادة شرطـــه

وكل هذا جعل عامة العلماء يتجنبون اخطاء النساخ الفاحشة حتى ان منهم من خصص لهم اماكن خاصة في منزله للاشراف على مايكتبون وكان العلامة ابي شيبه يفرد اربعين لحافا لمن يبيت عنده من النساخ(١) وكذلك العلامة ابن المرزبان « كان عنده خمسون لحافا وكيسا لمن يبيت عنده من النساخ للاشراف عليهم فيما يكتبون »(٢).

وربما ضن بعض العلماء بكتبه خشية من تلاعب النساخ بها كما فعل العلامة أبو عبيدة(٣) ومع ذلك نجد هذا العالم المسكين قد وقع ضحية لحيل النساخ وتلاعبهم بمؤلفاتهم فقد ذكروا عن الناسخ على بن المغيرة بن الأثرم انه عهد اليه بكتب ابي عبيدة لنسخها ، « وجعل في دار من الدور واغلق عليه الباب وامره بنسخها فجاءه ابو

---

١ ــ هو يعقوب بن شيبه المتوفى سنة ٢٦٢ (انظر ترجمته في تاريخ بغداد)
٢ ــ معجم الأدباء ج ٧ ص ٥٠ ط مرغليوث
٣ ــ تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١٠٨

مسحل الناسخ هو وجماعة فدفع اليهم الكتاب من تحت الباب وفرق عليهم اوراقا واعطاهم ورقا لينسخوا عليها وكان يلح عليهم في الاسراع في نسخه وتعجيلهم ويتفق معهم على الموعد الذي يريده فكانوا يفعلون ذلك دون علم ابي عبيدة »(١).

ومن النساخ من خان أمانته العلمية وقد ذكر عن ابي عبد الله محمد بن عبد الله الصغار ان وراقه أبا العباس المصرى خانه واختزل عيون كتبه واكثر من خمسمائة جزء من اصوله فكان ابو عبد الله يجامله في استرجاعها منه فلم ينجع فيه شيء(٢).

ومن حيلهم العجيبة ماشابهت تلك التي قام بها ابن البواب في تقليده لخط ابن مقلة الا انه اصبح هذه المرة هو المقلد فقد سمع الناسخ جمال الدين الشيرازى ان ربعة بخط ابن البواب في بغداد كتبها بخط عجيب فاحضر معه الورق الشفاف جملة واخذه معه وتوجه الى بغداد وأخذ تلك الربعة جزءاً فجزءاً وكان يضع الورق الشفاف على خط ابن

---

١ ــ نفس المصدر

٢ ــ السبكى : طبقات الشافعية ج ٢ ص ١٦٦

البواب يشف عما تحته ويجلى الكتابة له فكتب عليها لا يخل بذرة منها(١).

يقول الصفدى عن هذه الرقعة وقد رأيت أنا هذه الربعة التي كتبها جمال الدين الشيرازى جزء وما في الورقة مكتوب الا وجهة واحدة فكنت اتعجب لذلك حتى سمعت هذه الواقعة فعلمت السبب(٢).

ومثلما صنع ابن الشيرازى في تقليد حظ ابن البواب نجد معاصرا له هو الفقيه على بن يحيى بن فضل الله العدوى المتوفى سنة ٧٦٩ يقوم بنفس الصنيع يقول ابن حجر العسقلانى « كان يعتق الورق والحبر وينقل القطع بخط العجمى وابن البواب وغيرهما ممن تقدم وتأخر فلا يشك من ينظر ذلك من كتاب المنسوب انه خط من نقله منه الا الفرد النادر »(٣).

وزاحم النساخ في حيلهم تلك جماعة من التجار للكتب وفي ذلك الوقت حيث تقل الكتب ويصعب ايجادها تكون لها مكانة كبيرة نحو التجار فيها يبالغون في

---

١ ــ الوافى بوفيات الأعيان ج ١ ص ٢٠٢

٢ ــ الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٢٢

صيانتها واستكمالها ولو أدّاهم ذلك الى المكر والخدعة ، وهذا الوراق محمد بن محمد الجزيرى المتوفى سنة ٨٦٤ « قد تعاطى التجارة بالكتب حتى صارت له براعة في معرفتها وخبرة زائدة بخطوط العلماء والمصنفين بحيث أنه يشترى الكتاب بثمن يسير ممن لا يعلمه ثم يكتب عليه بخطه انه خط فلان فيروج وقد يكون ذلك غلط لمشابهته لذلك الخط وربما يتعمد ذلك التزوير لأنه لم يكن بحجة حتى انه ربما يقع له الكتاب المخروم فيوالي بين أوراقه او كراريسه بكلام يزيده من عنده او بتكرير تلك الكلمة بحيث يتوهم الواقف عليه التأمل تاما وقد يكون الخرم من آخر الكتاب فيلحق ما يوهم به تمامه »(١) .

وتلك صورة من حيلهم الكثيرة على انه يجب ان لا نغفل عن تلك المشقة التي يلاقيها اولئك النساخ في نسخ ما يكتبون وقد مر بنا منهم من يواصل الكتابة حتى يدركه التعب فيكتب مستلقيا على ظهره وماذلك الا لمشقة هذه المهنة وقد حدثنا الناسخ العلامة عيسى بن عمر الثقفى المتوفى سنة ١٤٩ انه « كان يكتب بالليل حتى ينقطع

---

١ — الضوء اللامع ج ٩ ص ١٤٨

سوءه ـــ يعنى وسطه » .

وكثير من العلماء من اثنى على ناسخه وشكر صنيعه فيما يبذله من جهد وهذا العلامة الأديب الكبير ابو العلاء المعرى يكتب رسالة في شكر ناسخه يقول فيها :

« لزمت مسكنى منذ سنة ٤٠٠ واجتهدت في أن أتفرغ على تسبيح الله وتحميده الى ان اضطررت الى غير ذلك فأمليت اشياء تولى نسخها الشيخ ابي الحسن على بن ابي هاشم احسن الله مثوبته لأنه افنى معى زمه ولم يأخذ عما صنع ثمنه والله يحسن الجزاء ويكفيه حوادث الأرزاء »(١).

ومن العلماء من فضل نساخة احد النساخ على غيرها يقول ابن القفطى وجدت في مجموع لابن خالويه كتب فيه نسخة كتاب الى الخالدين يسألهما انتساخ كتاب المبتدأ في النحو يقول فيه :

« وقد كنت عند املائى كتاب المبتدأ في النحو لم أحصل له نسخه فأسألكما انتساخه وليكن الناسخ لها ابو

---

١ ـــ انباه الرواة ج ١ ص ٥٦

جرادة الوراق الحلبى فان خطه حسن صحيح وكذلك ضبطه وكان حاضرا لإملائى »(١).

وقد بين ابن البواب في رسالته الموعود بها بعضا من ملابسات المهنة ومشقتها فقال : (٢)

« قد افتتحت خدمة سيدنا الأستاذ الجليل ... المقترن بهذه الرقعة افتتاحا بصحبة العذر الى جليل حضرته من ظهور التقصير فيه والخلل البادى لمتأمليه وقد كان من حقوق مجلسه الشريف ان يخدم بالغايات المرضية من كل صناعة تأديا لسؤدده وعلاه وتصديا للفوز بجميل رأيه ولم يصدني عن هذه القضية جهل بها وقصور بي عليها لكنى هاجر لهذه الصناعة منذ زمن طويل هجرة قد اورثت يدى حبسة ووقفة حائلتين بينها وبين التصرف والافتتان والوفاء شرط الاجادة والاحسان ولا خفي عليه ادام الله تأييده بفضل الحاجة ممن تعاطى هذه الصناعة الى فرط التوفر عليها والانصراف بجملة العناية اليها والكلف الشديد بها والولوع الدائم بمزاولتها فانها شديدة النفار بطيئة الاستقرار

---

١ ــ المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨٦

٢ ــ انظر هذه الرسالة في معجم الادباء

مطعمة الخداع وشيكة النزاع عزيزة الوفاء سريعة الغدر والجفاء نوار قيدها الأعمال شموس قهرها الوصال لاتسمح ببعضها الالمن آثرها بجملته وأقبل عليها بكليته ووقف على تأليفها سائر زمانه واعتاضها عن خلله وسكنه ولا يؤنسه قيادها ولا يغره انقيادها بقاؤها بالشهوة والنشاط ويوادعها عند الكلال والملال حتى تبلغ منها الغاية القصية ويدرك المنزلة العلية وينقاد الأنامل لتفتيح ازهارها وجلاء انوارها وتظهر الحروف موصولة ومفصولة ومفتحة في أحسن صيغها وأبهج خلقتها منخرطة المحاسن في سلك نظامها متساوية الأجزاء في تجاوزها والتئامها لينة المعاطف والأرداف متناسبة الأوساط والأطراف طاهرها وفوء ساكن ومقشها رهج فاتن كانما كاتبها وقد ارسل يدها وحث بها قلمه رجع فيها فكره ورويته ووقف على تهذيبها قدرته وهمته القلب بها في حجر ناظره والمعنى بها مظلوم بلفظه وما ذهبت في هذه القضية مذهب المطرق المغرب بها ولا المعول على شوافعها لكن نهجت بها سبيلا لامثالها اقامة رسم الخدمة المفروضة للسادة المنعمين ».

الى آخر قول ابن البواب وفيه الكثير من اسرار المهنة

التي كان يحسنها النساخ في زمنه وربما كانت النساخة في ذلك الوقت مهنة العاطلين عند بعضهم وربما زاحمهم في ذلك بعض العلماء من ذوى الخمول والشهرة المحدودة حتى قال أحدهم :

« اذا لم يكن العالم صاحب منصب ولم يجد ما يعيش منه اشتغل بنسخ الكتب »(١).

ويقول ابن رجب الحنبلى مشيرا الى حالة العلماء في زمنه « وقد وصلنا الى زمان تقطعت فيه هذه الأسباب حتى لو احتاج العالم في هذا الزمان المظلم ان يجتهد في كسب ان قدر عليه وان امكنه نسخ بالأجرة ويدبر ما يحصل له ويدخر الشيء لحاجة تعرض لئلا يحتاج الى نذل »(٢).

وقد عرفنا جماعة من هؤلاء العلماء الذين تكسبوا بالنساخة ومنهم من عاش على نساخة كتبه كالعلامة ابو الفتح ابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ كان يتكسب من نساخة كتابه عيون الأثر في سيرة رسول الله صلى الله

---

١ ــ متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع

٢ ــ ابن رجب الحنبلى : الاداب الشرعية ج ١ ص ٢٤٨

عليه وسلم(١) وكذلك علان الشعوبي صاحب كتاب المثالب ومن العلماء من فضل النساخة على غيرها باعتبارها اقرب الى الحلال من غيرها وكان العلامة ابو سعيد السيرافي على الرغم من توليه مهامَّ كبيرة إلّا انه لا يرضى الا بكسب النساخة وكذلك الحسن بن عبد الله المرزباني المتوفى سنة ٣٦٧ كان لايأكل الا من عمل يده ينسخ قبل أن يجلس للقضاء والاشتعال كل كراس بعشرة دراهم يتقوت بها .(٢)

وفي اليمن كان الفقيه ابو بكر بن على الحداد المتوفى سنة ٨٠٠ قد اصيب بكثرة الأولاد والفقر فامتهن حرفة النساخة ورفض هدايا السلطان المتكررة اليه باعتبار الأول اقرب الى الحل والأخرى مشبوهة(٣) والأمثلة على ذلك كثيرة ولو تتبعنا حالة العلماء في ذلك لطال بنا الحديث . ونكتفى هنا بذكر خبر واحد أورده القفطى عن العلامة الحسن بن الهيثم المتوفى سنة ٤٣٠ يقول « كان ينسخ في مدة سنة ثلاثة كتب ضمن اشتغاله بالعلم وهي كتاب

---

١ — موات الوفيات ج ٢ ص ١٧٢

٢ — ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ج ٢ ص ٢١٨

٣ — عبد الله الحبشى : حياة الأدب في عصر بنى رسول

اقليدس والمتوسطات والمجسطي ويستكملها في مدة السنة فاذا شرع في نسخها جاء من يعطيه فيهم مائة وخمسين دينارا مصرية وصار ذلك كالرسم الذي لايحتاج فيه الى مماكسة ولا معاودة قول فيجعلها مؤنته لسنة كاملة » .(١)

على أن الكثرة من اولئك العلماء قاموا بنسخ الكتب لأنفسهم او بكتب أنفسهم ولم يشتغلوا بما عداها الا في حالات نادرة وقد قال ابن الجوزي محدثا عن نفسه « كتبت باصبعي هاتين الفي مجلدة » (٢) وقال محمد ابن عمر سمعت ابن شاهين يقول حسبت ما اشتريت به الحبر الى هذا الوقت شهر فكان سبعمائة درهم .(٣) وآخرون دفعهم الى كتابتها حرصهم على الدقة والضبط وربما غلاء الكتب احيانا كثيرة . وقد بلغت في بعض الأحيان اثمانا باهظة وصلت فيها الى مائة دينار أو مائتين كما مر بنا عند ذكر محمد بن غطوس وكان المؤرخ احمد بن عبد الوهاب النويرى المتوفى سنة ٧٣٣ يبيع النسخة المقابلة

---

١ ــ القفطي تاريخ الحكماء ص ١٦٧

٢ ــ الذهبي : تذكرة الحفاظ ص ١٣٤٤

٣ ــ نفس المصدر ص ٩٨٨

المصححة من صحيح البخارى بسبعمائة الف درهم وربما اشتغل بنسخ كتابه نهاية الأرب وباعه بالفي درهم وكان يكتب في النهار ثلاث كراريس[١] وباع القاسم بن محمد ابن بشار الأنبارى المتوفى سنة ٣٠٥ نسخة من كتاب العين للخليل في مشاداة علمية بخمسين دينارا[٢] وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت وحملت نسخة من تاريخ الطبرى الى العزيز المتوفى سنة ٣٨٦ هـ فاشتراها بمائة دينار[٣] وباع الناسخ ابن غرس الموصلى نسخة من كتاب الأغانى لأبي تغلب كاتب عز الدولة بعشرة آلاف درهم فلما حملت اليه ووقف على الكتاب قال لقد ظلم ناسخه المسكين وانه ليساوى عندى عشرة آلاف دينار[٤] وبيعت مسودة كتاب الأغانى في المزاد العلنى باربعة آلاف درهم وكان أكثرها في قطع وبخط التعليق .

بل وربما فضل الناس نساخة ناسخ واحد على غيره وقد حدثنا القفطى عن شغف المصريين بنساخة الخطاط

---

١ ــ السخاوى : الاعلام بالتوبيخ ص ١٥١ ط القدسى
٢ ــ معجم الأدباء ج ٥ ص ١٥١
٣ ــ متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٢٢
٤ ــ معجم الأدباء

يوسف بن جرزاز النجيرمى المتوفى سنة ٤١٣ يقول :

« وللمصريين تنافس في خطه اذا وقع ولقد رأيت نسخة من ديوان جرير وقد بيعت بعشرة دنانير ورأيت طبقات الشعراء لابن سلام وقد بيعت بقريب ذلك وكنت احضر حلق الكتب عند بيعها فاذا قال الناس كتاب كذا بخط النجيرمى رفعت نحوه الأعناق » .

وسبب غلاء الكتب في بعض الأحيان ايثار بعض العلماء استعارة الكتب على شرائها وربما دفع الفقر بعضهم الى أن يحتال في شرائها بثمن بخس بحيل غريبة تحدثت عنها كتب التاريخ كما ذكروا مثلا عن العلامة عبد الله بن أحمد ابن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧ « كان لا يقتني من الكتب الا ارداها صورة وارخصها ثمنا » (١) و « كان اذا حضر سوق كتاب الوراقين واراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة وقال انه مقطوع ليأخذه بثمن بخس(٢) وتلك حيلة طريفة اتهم فيها صاحبها بقلة الامانة ولعلنا سنعود الى شيء من ذلك عند حديثنا على عارية الكتب .

---

١ ــ انباه الرواة ج ٢ ص ١٠١

٢ ــ السيوطى : بغية الوعاة ص ٢٧٧

ومع ذلك فربما هبطت اسعار الكتب الى اقصى حد تصل اليه وذلك في وقت كساد العلم وكساد مؤلفيها وقد حدثنا ابن سينا انه نزل سوق الوراقين فوجد دلالا ينادى على بيع مجلدة فعرضه عليه فرده رد متبرم به فقال له الدلال اشتره فانى ابيعك اياه بثلاثة دراهم فاشتراه فاذا هو شرح كتاب مابعد الطبيعة للفارابى .(١)

وترخص اسعار الكتب عند بيعها . في المزاد وعندما تكثر الوفيات في ايام الأوبئة والطواعين فيحتاج الورثة الى بيعها. وحضر العلامة سراج الدين البلقينى المتوفى سنة ٨٠٥ جانبا من هذه المزادات قال « حضرت في الطاعون العام بيع كتب بعض المحدثين فكان الوصى لايبيع الا بالنقد الحاضر فتوجهت الى البيت فأخذت كيسا من الدراهم ودخلت الحلقة فصببته لاأزيد في كتاب شيئا الا قال له الوصى بع فكان فيما اشتريته مسند الامام احمد بن حنبل بثلاثين درهما »(٢) .

ومن العلماء من باع كتبه لحاجة شديدة اقتضت ذلك

---

١ — الوافي بوفيات الأعيان ج ١ ص ١٠٨

٢ — الضوء اللامع ج ٦ ص ١٠٠

وهذا العلامة ابو الحسن على بن احمد الفالى ـــ بالفاء الموحدة ـــ المتوفى سنة ٤٤٨ يبيع نسخة عزيزة على نفسه من كتاب الجمهرة في اللغة لابن دريد بخمسة دنانير ويكتب عليها رقعة يقول فيها :

انست بها عشريـــــن حولا وبـــــعتها
فقـــد طال شوقى بعدهـــا وحنينـــى
ومـــاكان ظنـــي اننـــي سأبيعهـــا
ولـو خلدتنـــي في السجـــون ديـــونى
ولكـــن لضعـــف وافتقـــار وصبيـــة
صغـــــــــار عليهم يستهل شؤونى
فعـــلت ولم أمـــــلك سوابـــــق عبرة
مقالـــة مشوي الفـــؤاد حزيـــــن
وقـــد تخرج الحاجـــــات ياام مالك
كرائـــم مـــن رب بهـــن ضنيـــن (١)

ويحدثنا العلامة نصرون بن فتوح الجزرى عن بيعه لكتبه وتأنيب احد العلماء له على بيعه كتابى البخارى ومسلم من جملتها يقول :

---

١ ـــ معجم الأدباء ج ٥ ص ٨٣

« مرضت مرضة اشرفت منها على الموت وبعت فيها كتبا ادبية من جملتها صحيح البخارى ومسلم فذكرت ذلك بعد افاقتي من مرضى لابي القاسم بن القطاع فغضب علي غضبا شديدا وقال كنت تقتنع ببيع كتب الأدب ففيها عوض وتترك عندك الصحيحين هل رأيت مسلما يخرج الصحيحين من داره ولم يزل يردد ذلك حتى استحييت من نفسي وندمت غاية الندم » .

ومادمنا بصدد الحديث عن شراء الكتب وبيعها فلابد من الاشارة هنا الى بعض من تلك الاداب المستحبة في شراء الكتب وقد نبَّه على شيء منها العلامة ابن جماعة فقال :

« اذا اشترى كتابا تعهد اوله وآخره وترتيب ابوابه وكراريسه ويتصفح اوراقه واعتبر صحته ومما يغلب على الظن اذا ضاق الزمان عن التفتيش ما قاله الامام الشافعى قال اذا رأيت فيه الحاق واصلاح فاشهد له بالصحة . وقال بعضهم لايضيء الكتاب حتى يظلم يريد كثرة الاصلاحات »(١) .

---

١ ــ تذكرة السامع ص ١٧٢

وذلك بعض من اداب العلماء في شراء الكتب وكان ابن جماعة ينصح طالب العلم اذا كان بامكانه شراء الكتاب فلا يضيع وقته في نساخته بل يسرع الى شرائه .(١)

جمع الكتب والاحتفال بها

مر بنا في الفصول السابقة بعض من صناعة الكتب كوراقة ونساخة وتجارة وكل ذلك دل في حقيقة الأمر على اهتمام المسلمين بالكتاب ودل ايضا على مكانته عندهم وسيتضح لنا هذا عندما نعلم ان ملوك المسلمين كانوا في مقدمة اولئك النفر من الذين اعطوا الكتاب حقه وهو موضوع يحتاج منا الى دراسة مستقلة وسنحاول هنا الالمام ببعض ملامح هذا الموضوع .

وقد تشعب اهتمام الملوك من تقدير للكتب باعيانها الى تقدير لصناعة تلك الكتب من مؤلفين ونساخ ومنهم من

١ ــ المصدر السابق ص ٩٥

اكتفى بجمع الكتب وتكديسها في خزائنه بل ربما لاحظت هذا التقدير في تلك المكتبات الضخمة التي اسسوها وتحدثت عنها كتب التاريخ وكان من اشهرها مكتبة دار الحكمة ومكتبة القيروان ودار الحكمة في القاهرة ومكتبة الحكمة في مراغة وغيرها وقد اغنانا في البحث عنها جماعة من المعاصرين فلا نعيد القول عنها هنا(١).

ويقول متز « كان الملوك يفاخرون بجمع الكتب حتى كان لكل ملك من ملوك الاسلام الكبار بمصر وقرطبة وبغداد في أواخر القرن الرابع ولع شديد بالكتب فكان الحاكم صاحب الأندلس يبعث رجالا الى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند اول ظهورها وكان فهرس مكتبته يتألف من أربعة وأربعين كراسة بكل منها عشرون ورقة ولم يكن بها سوى اسماء الكتب . اما في مصر فكان للخليفة

---

١ ــ من هذه الكتب :

١ ــ خزائن الكتب في الخافقين لطرازى

٢ ــ خزائن الكتب لكوركيس عواد

٣ ــ المكتبات في الاسلام لماهر حمادة

٤ ــ بيت الحكمة لسعيد الديوه جي

ولم اطلع على شيء من هذه الكتب سوى الكتاب الأخير .

العزيز المتوفى سنة ٣٨٦ خزانة كبيرة وقد ذكر عنده كتاب العين للخليل بن أحمد فامر خزان دفاتره فاخرجوا من الخزائن نيفا وثلاثين نسخة منها نسخة بخط الخليل بن أحمد وحمل اليه نسخة من تاريخ الطبرى فامر العزيز الخزان فاخرجوا ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخطه وذكر عنده المتأخرون كتاب الجمهرة لابن دريد فاخرج من الخزينة مائة نسخة وقد اراد المتأخرون ان يقيدوا عدد ما كانت تشتمل عليه هذه الخزانة فقال المقريزى :

« انها كانت تشتمل على الف وستمائة الف كتاب »(١) .

ويصف المقدسى مكتبة عضو الدولة بانها حجرة على حدة عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ولم يبق كتاب صنف الى وقت عضو الدولة من انواع العلوم الا وحصله فيها وهي ازج طويل في صفة كبيرة فيه خزائن من كل وجه وقد الصق الى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتا طولها قامة في عرض ثلاثة اذرع من الخشب المزوق عليها

---

١ ــ الحضارة الاسلامية

أبواب تنحدر من فوق والدفاتر منضدة على الرفوف لكل نوع بيوت وفهارس فيها اسامى الكتب ولا يدخلها الا كل وجيه .

وفي اليمن كان الملك المؤيد الرسولى المتوفى سنة ٧٢١ هـ قد جمع مكتبة كبيرة ضمت نحو مائة الف مجلدة ويحمل اليها الكتب النفيسة من كل صوب حتى انه بذل في نسخة جيدة من كتاب الأغانى بخط ياقوت المستعصمي نحو مائتي دينار وكان الملك المظفر الرسولى المتوفى سنة ٦٩٤ يبعث من يحضر له الكتب من مصر والشام والعراق .(١)

ويقول ابن حجر العسقلانى انه قدم بنسخة جيدة من كتاب فريد القصر بخط ابن الفوطى الى الملك فكافأه عليها مكافأة سخية .(٢)

وكذلك أفاض ملوك الاسلام على العلماء في مؤلفاتهم بهبات سخية حتى شجع هذا احد العلماء لأن يؤلف

---

١ — انظر كتابنا حياة الأدب اليمنى في عصر بنى رسول والدرر الكامنة ج ٢ ص ١٠٠

٢ — الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٦٥

لجماعة منهم في عدة مواضيع في آن واحد فألف ابو منصور الثعالبى (لطائف المعارف) للصاحب ابن عباد والمبهج والتمثيل والمحاضرة لشمس المعالي قابوس بن وشمكير وسحر البلاغة وفقه اللغة لابي الفضل الميكالى والنهاية في الكتابة ونثر النظم واللطائف والظرايف للمأمون صاحب خوارزم . وحصل عليها مكافأة سنية(١)٠

وعند وضع البيروني كتابه المسعودى في الفلك اجازه المسعود بحمل فيل من النقد فرفضها المؤلف تعففا .(٢)

وكان القاسم بن سلام يبعث بكتبه الى الأمير عبد الله ابن طاهر صاحب خراسان فيحمل اليه مالا كثيرا استحسانا لما يكتبه .(٣)

وفي الأندلس أثاب المنصور صاحب الأندلس الفقيه صاعد البغدادى على كتاب النصوص بخمسة آلاف دينار .(٤)

---

١ — جرجي زيدان : تاريخ ادب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٦٨
٢ — الوافى بالوفيات ج ٨ ص ١٣٩
٣ — تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٤٠٤
٤ — ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٨ ط بولاق

وفي اليمن كان الملك المجاهد المتوفى سنة ٧٦٤ هـ قد كافأ العلامة محمد بن عبد الله الريمي المتوفى سنة ٧٩٢ على مؤلفه (التفقيه شرح التنبيه) بنحو ثمانية واربعين الف درهم بعد أن حمل الى قصر الملك على رؤوس الطلبة واعطاه اربعة شخوص ذهبية .

وكذلك كافأ الملك الاشرف المتوفى سنة ٨٠٣ هـ العلامة الفيروزابادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ بعد فراغه من كتابه (الاصعاد الى رتبة الاجتهاد) بثلاثة الاف دينار بعد أن احتفل بالفراغ منه بالطبول والزينة .(١)

ويقول الأستاذ شوقي ضيف ان اول من سنّ المكافأة للعلماء على مؤلفاتهم هو الخليفة المهدى العباسى فانه اكثر من مكافأته للعلماء كثرة جعلتهم يشدون الرحال اليه من كل بلدة واحتذاه ابنه الرشيد ويقال انه وصل الأصمعي يوما بمائة الف درهم وكان من المحظوظين لدى البرامكة ويروى ان جعفر البرمكي وصله بخمسمائة الف درهم وكان المأمون سحابة منهلة على العلماء والمتكلمين

---

١ — حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول

وقد اعطى النصر بن شميل وهو لايزال أميراً بمرو خمسين الف درهم .(١)

والحديث عن هذه الهبات يطول وهي في ذاتها دليل على تشجيع ملوك المسلمين للحركة العلمية في الحضارة الاسلامية .

على أن علماء الاسلام قد نافسوا ملوكه في اقتناء الكتب ومنهم من فاقهم في الحرص عليها ولنا في ذلك مجال واسع لم يتطرقه احد من الباحثين فقد كان هناك هواة من العلماء لجمع الكتب كالعلامة ابو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ الذي بلغت كتبه حدا كبيرا حتى يقال انه بلغ ارتفاعها الى علو سقف بيته .(٢)

وكان الزهراوى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ قد هم بشد كتبه من بيته فكانت ثمانية أحمال(٣).

وكذلك العلامة ابن منده المتوفى سنة ٣٩٥ هـ لما رجع من رحلته الطويلة كانت كتبه عدة أحمال حتى قيل انها

---

١ — شوق ضيف العصر العباسى الأول ص ١٠٢

٢ — ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١٦

٣ — تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٢

كانت اربعين حملا .(١)

وعندما انتقل ابو بكر البرقاني من الكرج الى باب الشعير في بغداد طلب من صديقه احمد بن غانم الحمامي ان يشرف على نقل كتبه ونبّه عليه اذا سأله أحد عنها فيعرفهم أنها دفاتر حتى لايظن انها ابرسيم(٢).

وعندما انتقل الواقدى من محلتين في بغداد حمل كتبه على مائة وعشرين وقراً وعن أحدهم ان له ستمائة قمطر كتب .(٣)

اما كتب الصولى فقد بلغت مجموعة كبيرة الا انها تميزت بتنضيدها والعناية بها قد خصص لها بيتا عظيما مملوء بها وهي مصبوغة وجلودها مختلفة الألوان كل صنف من الكتب لون فصنف احمر وآخر اخضر وثالث اصفر الى غير ذلك .(٤)

واستأجر العلامة ابن عقدة المتوفى سنة ٣٣٢ هـ من

---

١ — تذكرة الحفاظ ص ١٠٣٢
٢ — تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٧٥
٣ — تاريخ بغداد ج ٣ ص ٥
٤ — تاريخ بغداد ج ٣ ص ٤٣١

يحمل كتبه من موضع الى موضع آخر وشارط من يحمل له ان يدفع لكل واحد منهم دانقا لكل كره فوزن لهم بعد الفراغ من حملها مائة درهم وكانت كتبه ستمائة جمل[١] (اي حمل ستمائة جمل) .

وعندما توفى احمد بن ابراهيم الفاروثى سنة ٦٩٤ خلف من الكتب الفي مجلدة ومائة مجلدة .[٢]

وكان شافع بن على المتوفى سنة ٧٣٠ قد عمي في اخر عمره وكان مغرما بجمع الكتب حتى انه لما مات ترك نحو العشرين خزانة ملأى بالكتب النفيسة وكان من شدة حبه لها انه اذا لمس كتابا يقول هذا الكتاب الفلانى ملكته في الوقت الفلانى واذا طلب منه اي مجلد قام الى الخزانة وتناوله بسهولة كما وضعه .[٣]

وعرف ابن القيم الجوزيه المتوفى سنة ٧٥١ هـ بجمع الكتب فحصل منها ما لا يحصى حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهراً طويلا سوى ما اصطفوه

---

١ ــ تاريخ بغداد ج ٥ ص ١٨
٢ ــ الوافى بالوفيات ص ٢٢٠
٣ ــ الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٨٤

لأنفسهم .(١)

وكان شرف الدين محمد بن عبد الله السلمى المرسى الأندلسى خلف كتبا عظيمة مودعة بدمشق فأمر السلطان ببيعها فكانوا يحملون منها كل يوم ثلاثا الى دار احد العلماء فكان يشترى منها جملة كبيرة بيعت في سنة كاملة . وذكر عنه انه كان له في كل البلاد التي يتنقل اليها من الكتب ما يحتاج اليه حتى انه لا يستصحب كتبا اكتفاء بما له في البلد الذي يسافر اليه من الكتب .(٢)

وابتنى محمد بن هلال غرس النعمة المتوفى سنة ٤٨٠ هـ بشارع ابي عوف ببغداد دار كتب وقف فيها نحو اربع مائة مجلد في فنون العلم ورتب بها خازنا يقال له الأقباس وتردد اليها العلماء سنين كثيرة ثم صرف الخازن ومحا ذكر الوقف من الكتب وباعها فانكر عليه احد العلماء ذلك فقال قد استغنى عنها بدار الكتب النظامية .(٣)

وخلف محمد بن العباس بن الفرات ثمانية عشر صندوقا

---

١ ــ الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٥٥

٢ ــ الوافى بالوفيات ج ٣ ص ٣٥٥

٣ ــ الوافى بالوفيات ج ٥ ص ١٦٨

مملوءة كتبا اكثرها بخط يده سوى ماسرق منها وكانت له جاريه تعارض مايكتب .(١)

ومن هواة جمع الكتب من الأطباء العلامة موفق الدين المطرى طبيب صلاح الدين الأيوبي خلف من الكتب عشرة الاف مجلدة وبعد وفاته بيعت ، قال من حضر بيعها انها كانت الوفا اكثرها بخط ابن الحماله ـــ احد مشاهير النساخ ـــ فبلغت في المناداة ثلاثة آلاف درهم او اكثر .(٢)

ويحدثنا الجاحظ عن مكتبة موسى بن يحيى بانه يوجد فيها من كل كتاب ثلاث نسخ .(٣)

وجمع القاضى عبد الرحيم البيساني المتوفى سنة ٥٩٦ هـ مكتبة كبيرة ، قال عبد اللطيف البغدادى في وصفها ووصف صاحبها دخلت عليه فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب وهو يكتب ويملى على اثنين ووجهه وشفتاه

---

١ ـــ الوافي بالوفيات ج ٣ ص ١٩٦ وانظر تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٢٣ والمنتظم لابن الجوزى ج ٧ ص ١٧٦

٢ ـــ الوافي بالوفيات ج ٩ ص ٤١

٣ ـــ الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ٦٠

تلعبان الوان الحركات ، الى أن يقول وكان يقتني الكتب في كل فن ويجلبها من كل جهة وله نساخ لا يفترون ومجلدون لايبطلون قال بعض يخدمه في الكتب ان عددها مائة الف واربعة وعشرون الفا .(١)

وكان القاضى ابو المطرف المتوفى سنة ٤٠٢ قاضي الجماعة بقرطبة قد جمع من الكتب في انواع العلم ما لم يجمعه احد من أهل عصره بالأندلس وكان له ستة وراقين ينسخون له دائما وكان متى علم بكتاب حسن عند احد من الناس طلبه ليشتريه منه ويبالغ في ثمنه . ويحكى ان أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتبه بعد وفاته فمكثوا عاما في مسجده لشرائها واجتمع من ثمنها اربعون الف دينار .(٢)

وقال أحد معاصرى العلامة اسرائيل بن يونس السبيعى أنه ما ترك كوة ولا سفطا في بيته إلا ملأها كتبا .

وعندما توجس سفيان الثوري من أحد أعوان السلطان خيفة أخفى كتبه فلما أمن الرسل بعث الى صديقين له ليخرجاها فجعلا يخرجانها ويقولان له في الزكاز الخمس وهو

---

١ ــ المقريزى : خطط مصر ج ٢ ص ٣٦٦

٢ ــ ابن الفرضى

يضحك قالا.: فاخرجنا تسع قمطرات كل واحد الى هاهنا واشارا الى ثديهما .(١)

وخلف يحيى بن معين من الكتب مائة قمطرٍ واربعة عشر قمطراً واربعة حباب شرابية مملوءة كتبا .(٢)

ويحدثنا ابن النديم عن رجل واحد من هواة جمع الكتب فيقول عنه انه عنده من نفائس الكتب والخطوط ما يذهل له الانسان يقول :

« كان بمدينة الحديثة (من العراق) رجل يقال له محمد الحسين بن بعره جماعة للكتب له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة تحتوى على قطعة من الكتب الغريبة في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة . فلقيت هذا الرجل دفعات فانس بي وكان نفورا ضنينا بما عنده وخائفا من بنى حمدان فأخرج قمطرا كبيرا فيه نحو ثلثمائة رطل جلود فلجان وصكوك وقراطيس مصرية وورق تهامى وصينى وجلود أدم وورق خرسانى فيها نوادر عن العرب وقصائد مفردات من اشعارهم وشيء من النحو والحكايات والأخبار والأسمار

---

١ ــ تاريخ بغداد ج ٩ ص ١٦١

٢ ــ تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٨٣ ووفيات الأعيان ج ٢ ص ٤١٥

والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم وذكر لي ان رجلا من أهل الكوفة ذهب عنى اسمه كان مستهترا بجمع الخطوط القديمة وانه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت بينهما وأفضال لموافقته بالمذهب فانه كان شيعيا فرأيته وقلبته فرأيت عجبا اثارة الزمان قد اخلقها وكان على كل جزء او ورقة امداح توقيع بخطوط العلماء واحد اثر واحد يذكر فيه خط من هو وتحت كل توقيع آخر خمسة أو ستة من شهادات العلماء بعضهم لبعض » .(١)

... الخ قول ابن النديم عن هذه المجموعة النادرة ويقول ان فيها خطوط جماعة من الصحابة ومشاهير العلماء .

ويذكر الخطيب البغدادى في كتابه (تقييد القلم) جماعة من هواة جمع الكتب منهم ابن عباس ــ قال موسى ابن عقبه وضع عندنا كريب حمل بعير من كتب ابن عباس فكان على بن عبد الله بن عباس اذا اراد كتابا بعث اليه ارسل إلي بصحيفة كذا وكذا فينسخها ويبعث بها .

---

١ ــ ابن النديم : الفهرست ص ٤٦ ط طهران

وقال القفطى عن مسيحى بن ابي البقا المعروف بابن العطار « كان قد قنى كتبا كثيرة في الحكمة وما يتعلق بها بحيث خرجت في الكثرة عن الحصر وقيل انه اذا وقعت في يده نسخة من كتاب خشى المزايدة عليه يخرمه لينقص من قيمته ويبتاعه واشتهر هذا عنه فرموه بقلة الدين لأجل ذلك .(١)

وبلغت كتب الامام احمد بن حنبل اثنى عشر جملا .

وكانت كتب ابراهيم بن اسحاق الحربى اثنى عشر الف جزء لغة وغريب اغلبها بخطه .(٢)

وكانت كتب سعيد بن المبارك الدهان المتوفى سنة ٦٥٩ هـ كثيرة جدا فحدث أن غاب عن بغداد في مهمة الى الموصل فتلفت كتبه اثر غرق اصاب بغداد فبعث من يحضرها اليه ان كانت سالمة فوجدها غرقت فيما غرق وزادها على الغرق ان اصابها ماء من مدبغة خلف بيته فاهلك الكتب زيادة على هلاكها فلما احضرت اليه أخذ

---

١ — ابن القفطى : تاريخ الحكماء ص ٣٣٣

٢ — تذكرة الحفاظ

في تأملها على نتنها وتغير لونها فاشير عليه ان يبخر ما سلم منها على فساده بشيء مما يغير الرائحة فشرع في تبخيرها باللاذن ولازم ذلك الى أن بخرها بما يزيد على ثلاثين رطلا من اللاذن فطلع ذلك الى رأسه وعينه فاحدث له العمى واتلف بصره قبل موته (١) فكان سبب عماه شغفه بكتبه .

وكان العلامة محمد بن عبد الرحمن البنجديهى « قد اقتنى كتبا جميلة الوصف واستعان في جمعها بجاه الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي » يقول القفطى :

« اخبرني أحدهم لما دخل صلاح الدين الأيوبي حلب سنة ٥٧٧ نزل البنجديهى الى الجامع الى خزانة الوقف بها واختار منها جملة أخذها لم يمنعه منها مانع فرأيته وهو يحشرها في عدل ، وحصل من كتب اللغة والأدب كل جميل » .(٢)

ومن غريب اخبار اصحاب الكتب ان العلامة عبد الله ابن احمد ابن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧ هـ كان صاحب

---

١ ــ انباه الرواة ج ٢ ص ٤٨

٢ ــ انباه الرواة ج ٣ ص ١٦٦

مكتبة كبيرة في دار عتيقة ورثها عن والده هو واخوانه وله منها منزل صغيرة منفردة وبها بوارى قصب مفروشة وفي صدرها الواح من الخشب مرصوص عليها كتب له . يقول القفطى « اقامت سنين ما ازيل عنها الغبار وكانت تلك البوارى قد استترت لما عليها من الغبار يقعد في جانب منها والباقى على تلك الحالة ــ وقيل إن الطيور عششت فوق الكتب وفي اثنائها »(١) .

وبلغت كتب ابي الحسين السيرافى « المجلدة فقط احد عشر الف مجلد وسبعمائة وعشرات من المشتتة ماأذا عول على تجليده احتاج الى ثلثمائة دينار »(٢) .

وكان العلامة على بن أحمد الآمدى المتوفى سنة ٧١٠ صاحب مكتبة كبيرة وقد كان في اخر عمره رحمه الله « فكان يعرف الكتب ولا يخفى عليه منها شيء بل كان اذا طلب منه المجلدة الأولى مثلا من الكتاب الفلاني قام وأخرجه ، وكان يمس الكتاب ويقول هذا يشتمل على كذا وكذا فلا يخطىء وكذلك يصف قلمه وخطه فلا يخطىء » .

---

١ ــ انباه الرواة ج ٢ ص ١٠٠

٢ ــ انباه الرواة ج ٣ ص ٣٢٢

وهناك آخرون لامجال لذكرهم هنا وقد اشرت الى بعض منهم ـــ من اهل اليمن ـــ في كتابى « حياة الأدب اليمنى في عصر بنى رسول » فلا بأس بذكر جماعة منهم هنا للتبرك والذكرى فمنهم العلامة الأمير عبد الله بن العباس الحجاجى المتوفى سنة ٦٧٠ ، خلف مكتبة ضمت اكثر من خمسة آلاف مجلدة ، وكالعلامة ابي الخير منصور الشماخي المتوفى سنة ٦٨٠ يقول المؤرخ الجندى في وصف مكتبته جمعت خزانته من الكتب ما لم يجمعه غيره من نظرائه بحيث قيل ان فيها مائة اصل سوى المختصرات . ومنهم الأديب عمر بن على العلوى المتوفى سنة ٧٠٣ ضمت مكتبته مجموعة نادرة بلغ مافيها من الدواوين الشعرية وحدها نحو خمسمائة ديوان .(١)

بل بلغ الشغف ببعض علماء المسلمين في جمع الكتب وشرائها ان يبيع بيته ويقتنى مجموعة نفيسة من الكتب وذلك ما حدث للعلامة ابو العلاء الحسن بن أحمد الهمذانى المتوفى سنة ٥٦٩ الذي حضر بيع كتب ابن الجواليقى فوقف على قطعة منها ثمنها ستون دينارا فاشتراه

---

١ ـــ حياة الأدب اليمنى

الحافظ ابو العلا بنفس الثمن وطلب امهاله لتسديد القيمة فخرج من بغداد الى مدينته همذان ، فنادى على دار له فبلغت ستين دينارا فقال بيعوا فة الثمن ورجع الى بغداد في نفس المدة المحددة ووفى الكتب ولم يشعر احد بما فعل الا بعد مدة . (١)

وكذلك فعل العلامه الحافظ عبد الله بن أحمد الخشاب ، فقد اشترى يوما كتبا بخمسمائة دينار ولم يكن عنده شيء فاستمهلهم ثلاثة ايام ثم مضى ونادى على داره ، فبلغت خمسمائة دينار فنقد صاحبها وباعه بخمسمائة دينار ووفى ثمن الكتب . (٢)

ويقال انه لما وقف العلامة خلف بن يوسف البلنسي على كتاب التقريب للقاضي عبد الحق « استحسنه وأراد شراءه فلم يتيسر له ثمنه فباع حوائج بيته واشتراه » .

هذا غاية ما يصل اليه الشغف بجمع الكتب واقتنائها .

---

١ — ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة

٢ — ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج ١ ص ٣١٩

ومع ذلك ربما عابوا على بعضهم جمع الكتب لغير حاجة . وهذا الشاعر ابو سعيد العقيلي ينكر على الصولي جمعه الكتب وركونه عليها .

انما الصولي شيـــــخ اعلـم النـاس خزانـه
ان سألنـــاه بعلـــم طلبـا منـه ابانـــه
قال ياغلمـان هاتـــوا رزمة العلـم فلانـــه[1]

وما عابه الشاعر العقيلي على الصولي هو آفة اكثر الباحثين المعاصرين حيث لاتكاد تقف على واحد منهم يجيبك على مسألة دون ان يرجع الى كتابه .

وفي هذا المعنى يقول العلامة ابن جماعة « والعلم لايؤخذ من الكتب فانه اضر من المفاسد »[2] .

وقال عبيد الله بن احمد الصيرفي :

ليس بعلـــم ما حوى القمطـــر
ما العلـــم الا ماوعـــاه الصدر
فذاك فيـــه شرف وفخـــر
ورتبـــة جليلـــة وقـــدر[3]

---

١ ــ معجم وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١٠
٢ ــ تذكرة السامع ١٢٣
٣ ــ ادب الاملاء والاستملاء ص ١٤٧

وقال ابو معقل الحسن بن احمد بن معقل الأزدى :(١)

كم مكثر في صنوف العلم من كتب
اضحت لديه ركاما وهو كالوثن
ماعنده في الذي يحوى صحائفه
خبر ينوء به من ورطة اللكن
بل انه معجب فيها ومقتنع
من علم باطنها بالظاهر الحسن

وفي هذا المعنى ايضا يقول احدهم :(٢)

وان سألته عن علمه
قال علمى ياخليلى في سفط
في كراريس جياد حكمت
وبخط امي خط امي خط
وان سألته عن مشكل
حك لحييه جميعا وامتخط

ويقول محمد بن مفلح المقدسى :(٣)

---

١ — المصدر السابق ص ١٤٧
٢ — المقدسى : الاداب الشرعية ج ٢ ص ١٣٣
٣ — المصدر السابق ص ١٣٤

يظـــن الغمـــر ان الكـــــتب تهدى
اخـــا فهْـــمٍ لادراك العلـــــوم
ومايـــــــدرى الجهـــــول بان فيها
غوامض حيرت عقـــل الفـــــهيم
اذا رمت العلـــــوم بغير شيـــــخ
حملت على الصراط المستـــــــــقيم
وتلتـــبس العلـــوم علـــيك حتـــى
تصير اجهـــــل من تومـــــا الحكيم

ولهم في ذم جمع الكتب لغير حاجة وفهم اشياء كثيرة .

وكان الحافظ السلفي رحمه الله على سعة علمية « مغرى بجمع الكتب وما حصل له من المال يخرجه في ثمنها حتى كان عنده خزائن كتب لا يفرغ للنظر فيها فعفنت وتلصقت لنداوة ، البلد فكانوا يخلصونها بالفأس فتلف اكثرها »(١) .

ويشبه الحافظ السلفي في مسلكه ذلك العلامة عبد الله بن محمد العراقي المتوفى سنة ٨٣٧ ، يقول عنه السخاوي كان « يستكثر من شراء الكتب مع عدم فراغه للاشتغال »(٢) .

---

١ ــ تذكرة الحفاظ ص ١٣٠٣

٢ ــ الضوء اللامع ج ٥ ص ٦٤

وبخلافهما العلامة ابو مروان عبيد الله بن محمد بن مالك من أهل قرطبة كان يذكر العامة ولم تكن له كتب ولم يكن معه سوى كتاب فيه فقه ، فكان اذا ذكر عنده المكثرون في الكتب وجمع الدواوين يقول لا أدرى هذه كتبى والله لاموت وأنا أجهل الكثير مما فيها فماذا اصنع بالاكثار منها .(١)

وعندما توفى الشاعر ابو نواس قال من وقف على تركته « فتشنا منزله بعد موته فما وجدنا الا قمطرا فيه جزازات مشتمل على غريب ونحو لاغير »(٢) وهذه كل كتب ابي نواس .

وهكذا سنجد الاكثار من الكتب عند بعضهم كان لحاجة شديدة وبعضهم لم يكن يجد الفراغ لمطالعتها فكان لا يكلف نفسه مشقة شرائها واقتنائها والقليل منهم من آثرها لذاتها .

---

١ ــ القاضى عياض : المدارك ج ٤ ص ٨١٤

٢ ــ ابن خلكان ج ١ ص ١٣٥

اعارة الكتب

على ان منهم من شغف بالكتب حبا ولم يتيسر له الحصول عليها فمنهم من استعان في هذا الأمر بالمكتبات الموقوفة كالفقيه مقبل بن خلف الهمدانى اليمنى المتوفى سنة ٥٧٩ الذي هاجر من قريته الى مدينة « ذى اشرق » ليكون بالقرب من مكتباتها « لأنه كان قليل الكتب »(١) .

وكان العلامة محمد بن بهادر الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ الذي ملأت كتبه الافاق كان قليل الكتب لايملك كتبا « وانما كان يطالع في حانوت الكتب طول النهار ومعه اوراق يعلق فيها ما يعجبه ثم يرجع الى بيته فينقله الى مصنفاته ولا يشترى شيئا »(٢) .

ومن العلماء من جعل اعارة الكتب مدعاة لعدم شرائها وهذا العلامة النحوى المفسر ابو حيان المتوفى سنة ٧٤٥ هـ يقول في دهاء متحدثا عن نفسه « انا اذا اردت اي

١ ــ حياة الأدب اليمنى

٢ ــ الدرر الكامنة

كتاب استعرته من خزائن الأوقاف واذا اردت من احد أن يعيرنى درهما ما اجد ذلك »[١] .

وهذا الكلام يجرنا الى الحديث عن اعارة الكتب وهو مسلك حضارى عرف عند المسلمين منذ مدة مبكرة وقد حبذ العلماء اعارة الكتب ودعوا الى بذلها للمستفيدين وكان القاضى وكيع يقول اول بركة العلم اعارة الكتب[٢] وقال ابن شهاب المتوفى سنة ١٢٤ هـ ليوسف بن زيد اياك وغلول الكتب قال وماغلول الكتب قال حبسها[٣]

وانشد خميس بن على الجوزي لنفسه في اعارة الكتب :

كتبـــي لأهـــل العلـــم مبذولـــة
ايـــــديهم مثـــــل يدى فيها
متـــى ارادوهـــا بلا منـــة
عاريـــــة فليستعيروهـــــا
حاشاي ان اكتمهـــــا عنهم
بخـــلا كمـــا غيـــرى يخفيهـــا

---

١ — نفح الطيب
٢ — ادب الأملاء ص ١٧٥
٣ — المصدر السابق ص ١٧٦

اعارنـــــا اشياخنـــــــا كتبهم
وسنـــــة الأشيـــــاخ نمضيها(١)

وقال ابو حفص عمرو بن عثمان الشعيبي :(٢)

لاتمنعـــن الأهـــل كتـــبك واغتنـــم
في كل وقت ان تعير كتابـــــــا
فمعيرهـــا كمـــعير ماعـــون فمـــــن
يمنعـــه لاق الويـــل والانصابـــا

ويحدثنا السمعانى عن آداب الاعارة فيقول اذا اعير فلا يحبسه عنه ويرده عاجلا ولأجل حبس الكتب المستعارة امتنع غير واحد من اعارتها .

وانشد ابو محمد عبد الله بن نصر السويدى :(٣)

اعـر صديـــقك ما حصلت من كتب
تفـز بشكـــر اريج الـــنشر عن كثب
فان اعـــاروك فارددهـــا على عجـــل
حتـــى تعـــاد بلا منـــــع ولا نصب

---

١ — المصدر السابق ص ١٧٥
٢ — المصدر السابق ص ١٧٥
٣ — المصدر السابق ص ١٧٦

على ان كثيرا من الناس كان صعب الاعارة ويروى عن العلامة ابن الخشاب « انه اذا استعار كتابا من احد وطالبه به قال دخل بين الكتب فلا اقدر عليه »[1] .

ولهذا قال محمد بن خلف المرزبان ناصحا المعير :

اعر الدفاتر للصاحب بالرهن الوثيق
انه ليس قبيحا اخذ رهن من صديق[2]

وقال أحدهم :

أيها المستعير منى كتابا
ارض لى منه مالنفسك ترضى
لاترى رد ما أعرتك نفلا
وترى رد ما استعرتك فرضا[3]

وكتب الحمدونى الى شخص امتنع عن رد كتب استعارها منه :

---

١ — بغية الوعاة ص ٢٧٧
٢ — تقييد العلم ص ١٤٩
٣ — ادب الاملاء والاستملاء ص ١٧٦

مابـــال كتبـــى في يديك رهينـــة
حبست على كر الزمـــــــان الأول
فأذن لها في الانصراف فانهـــــــا
كنـــز عليـــه اذا افتقـــرت معـــولى
ولقـــد تعـــنت حين طال مقامهـــا
طال النـــوى على رسوم المنـــزل(١)

وبسبب تعنت كثير من الناس من رد اعارة الكتب قال حمزة بن حبيب الزيات : « لاتأمنن قارئا على دفتر ولا حمالا على حبل »(٢)

وقال آخـــر :

جل قدر الكـــتب ياصاح عنـــدى
فهـــو أغلى من الجواهـــــر قدرا
لست يومـــا معيره من صديـــق
لا ولا مـــن أخ يحـــاول غـــدرا

---

١ ــ ادب الاملاء والاستملاء ص ١٧٦
٢ ــ ادب الاملاء والاستملاء ص ١٧٧

ما على من يصونـــــــــه من ملام
بل له العـــذر فيـــه سراً وجهـــرا
لن أعير الكتـــــاب الا برهـــــن
من نفـــيس الرهـــون تبرا ودرا(١)

ويقول علي بن ابي بكر الطرازى :

يا مستـــعير كتـــــابى لا تكثرن عتـــــــابى
الا برهـــــن وثيـــق من فضة او ثيـــاب(٢)

وقال أبو حفص عمرو بن عثمان الجنزى :

اذا ما اعـــرت كتابـــا فخـــذ
على ذلك رهنـــا وخـــل الحيـــاء
فانك لم تتهم مستـــــــــــعيرا
ولكـــن لتذكـــر منـــه الاداء(٣)

وقال محمد بن خلف بن المرزبان :

ايها المستـــعير منـــي كتابـــا
ان رددت الكتـــاب كان صوابـــا

---

١ — ادب الاملاء والاستملاء ص ١٧٨
٢ — ادب الاملاء والاستملاء ص ١٧٩
٣ — ادب الاملاء والاستملاء ص ١٧٩

انت واللـــه ان رددت كتابـــا
كنت أعطيتـــه اخـــذت كتابـــا(١)

والاشعار في ذلك كثيرة .

وربما تلطف أحدهم بشعر رقيق لطلب كتاب فكتب منذر بن سعيد البلوطى الى ابى على القالى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ يطلب منه كتابا بعنوان « الغريب المصنف » :

بحق ريم مهفهـــــــف وصدغـــه المتعطـــف
ابـــــــعث الى بجزء من (الغريب المصنف)(٢)

وربما كان من السمات الحميدة في الرجل أن يكون متسامحا في اعارة كتبه لطلاب العلم حتى انهم اشاروا الى ذلك عند ترجمتهم لبعض الأشخاص الذين عرفوا بذلك فالعلامة الحسين بن محمد الطيبى المتوفى سنة ٧٤٣ هـ يصفه ابن حجر العسقلانى بقوله : « كان ملازما لاشغال الطلبة في العلوم الاسلامية بغير طمع بل يجذبهم ويعينهم ويعير الكتب النفيسة لأهل بلده وغيرهم من أهل البلدان

---

١ ــ تقييد العلم ص ١٤٨

٢ ــ القاضى عياض : الالماع ص ١٣٨ ومثله في الوافى ج ٩ ص ١٩٢ وياقوت ج ٧ ص ١٨٤

من يعرف ومن لايعرف »(١).

ويصف سليمان بن يوسف الياسوفى بانه « كان سهل العارية للكتب »(٢).

والقاسم بن محمد البرزالى المتوفى سنة ٧٣٩ يصفه ابن حجر ايضا بقوله :

« حصل كتبا جيدة في اربع خزائن وكان باذلا للكتب واجزائه »(٣) وغيرهم كثير .

وربما افادت الاعارة المعير نفسه فكثيراً ما تصاب الكتب بنكبات كبيرة كالحرق والتلف وتبقى الكتب المعارة في سلامة من ذلك ، فقد كان ابراهيم بن ابي بكر المعروف بالفاشوشة قد احترقت كتبه ولم يبق له غير الكتب التي كانت عند الناس في العرض او العارية .

وكذلك عبد الوهاب بن جعفر الميدانى المتوفى سنة ٤١٨ كان قد كتب بنحو مائة رطل حبر احترقت كتبه

---

١ ــ الدرر الكامنة ج ٢ ص ٦٩
٢ ــ الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٦٦
٣ ــ الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٨

واعادها والسبب انه لايبخل باعارة كتبه سوى كتاب واحد كان لايسمح به فاحترقت كتبه كلها فاستحدث نسخا من الكتب التي نسخت من كتبه سوى ذلك الكتاب المضنون به فلم يجد له نسخة .(١)

وكان القاضى ابو الوليد الكناني اذا اعار كتابا لاحد انما يتركه عنده بعدد ورقاته اياما ثم لا يسامحه بعد ذلك ويقول هذه الغاية ان كنت أخذته للدرس والقراءة فلن يغلب احد حفظ ورقة كل يوم وان اردته للنسخ فكذلك وان لم يكن هذا ولا هذا فانا أحوط بكتابى وأولى برفعه منك .(٢)

وتلك طريقة عجيبة في اعارة الكتب على ان الكثير من العلماء قد بخلوا باعارتها لمكانتها عندهم وهذا القاضى ابو المطرف قاضى الجماعة في الأندلس « لايعير كتابا من كتبه البتة واذا سأله احد ذلك وألحف عليه اعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه الى المستعير .(٣)

---

١ ــ لسان الميزان ج ٤ ص ٨٦

٢ ــ الإلماع ص ٢٢٤

٣ ــ متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٢٧

بل بلغ ببعضهم ان يحرمها المنتفعين لغرض نفسانى وهذا الفقيه ابراهيم بن احمد بن عرس المتوفى سنة ٨٨٨ « كان عنده من الكتب والأجزاء مالم ينتفع به بل عطل على غيره الانتفاع بها بعدم سماحه بعاريتها حسبما عرف عنه حتى نقل عنه انه قال اذا عانيت الموت القيتها في البحر او كما قال »(١).

وكثير من المكتبات العامة ما شددت في اعارة الكتب فقد ذكر عن ابى حيان انه عمل في مكتبة الحكمة بنيسابور إن كتبها لاتعار خارج الخزانة »(٢).

ويصف السخاوى خازن المكتبة المحمودية « بالصرامة والجلادة ـــ في عدم اعارة كتبها ـــ وعدم الالتفات الى رسالة من كبير او صغير حتى ان اكابر الدولة واركان المملكة كان الواحد منهم يحاوله على عارية كتاب واحد وربما بذلوا المال الجزيل فيصمم على الامتناع بحيث اشتهر ذلك »(٣).

---

١ ـــ الضوء اللامع ج ١ ص ١٣
٢ ـــ الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٢٩
٣ ـــ الضوء اللامع ج ٥ ص ١٤٤

ومع ذلك فهذه المكتبات هي المنتجع الأساسي لطلاب العلم وقد حدثنا أحدهم على دخول المعرى مكتبة البصرة واستعارته منها كتابا يقول القفطى :

« حضر ابو العلا المعرى خزانة الكتب التي بيد عبد السلام البصرى وعرض عليه اسماءها فلم يستغرب منها شيئا لم يره بمكتبات العلم بطرابلس سوى ديوان تيم اللات فاستعاره منه وخرج عن بغداد وقد سهى عن اعادته ولم يذكره حتى صار بالمعرة وفي صحبته القصيدة التى اولها :

هات الحديث عن الـــزوراء أو هيتـــا
وموقـد النـــار لا يلـــوى بتكريتـــا (١)

ويحدثنا السبكى عن نفسه بان عنده كتبا من وقف الخزانة السميساطية . (٢)

ومع ذلك فربما تسبب عدم اعارة الكتب والتشديد فيها الى حالة نفسية عند بعضهم فهذا الفقيه الصفار جلس خمسين سنة يدعو على ابى العباس المصرى لأنه منع عنه

---

١ ــ انباه الرواة ج ١ ص ٥٠
٢ ــ السبكى : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٤٢

كتبه .(١)

ولهذا كله رأى جماعة من العلماء عدم استساغة استعارة الكتب مع التمكن من شرائها او استئجارها .(٢)

ومع ذلك نجد ابن جماعة يقول في هذا الصدد « يستحب اعارة الكتب لمن لاضرر عليه فيها ممن لاضرر منهم وهذا احسن لما فيه من الاعانة على العلم مع مافي مطلق العارية من الفضل والأجر » .

وقد حث الامام الشافعي على بذل الكتب في قطعة بعثها الى محمد بن الحسن الشيباني :

العلم يأبى اهله ان يمنعوه اهله

ويلمح ابن جماعة الى بعض من آداب العارية فيقول :

« ينبغي للمستعير ان يشكر للمعير ذلك ويجزيه خيرا ولايصل مقامه عنده من غير حاجة بل يرده اذا قضى حاجته ولا يحبس اذا طلبه او استغنى عنه ولا يجوز ان يصلحه بغير اذن . »

---

١ ــ ابن عساكر : تاريخ ابن عساكر ج ٢ ص ٧٢

٢ ــ تذكرة السامع ص ٩٥

حرق الكتـــــب

ومع ذلك فالكتاب في الحضارة الاسلامية لم يسلم من نوائب الدهر وظروف الزمن العاتية فقد تعرضت كتب ومكتبات عديدة للحرق والغرق ولنا في أخبار ذلك مآس تتفتت لها القلوب حسرة .

وكان العلماء يتحدثون عن حرق كتبهم بحسرة والم فهذا العلامة محمد بن على المادراني المتوفى سنة ٣٤٥ يقول ، ان كتبه احرقت في اثناء حريق داره ، وكان العلامة احمد بن عبد الوارث الأسواني المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، قد احترقت كتبه (وبقى منها اربعة اجزاء) .

وهذا العلامة عمر بن الحسين الخرقي المتوفى سنة ٣٣٤ « خرج من بغداد فأودع كتبه في درب سليمان فاحترقت الدار التي كانت بها » .

ومنهم من سبب له حرق كتبه ذهول عقلى وخلل في المخ فهذا العلامة ابو حفص عمر بن على بن الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ صاحب المؤلفات الكثيرة احترقت كتبه بعد

ان تعب في جمعها « وكان ذهنه مستقيما قبل أن تحرق ثم تغير حاله بعد ذلك » .

وغير هؤلاء كثيرون ولعل اكبر خسارة بحرق الكتب تأتي عندما تلتهم النار مكتبة كبيرة عامة فتضيع عيون قيمة من كتب الاسلاف وكان الحريق المتعمد من جراء الحروب الصليبية في الشرق والغرب قد سبب الكثير من ذلك .

وربما كان الحريق سهواً أو نتيجة إهمال ففي سنة ٥٩٥ احترق جامع اصفهان « فكان فيه من المصاحف الثمينة خمسمائة مصحف من جملتها مصحف بخط ابي بن كعب » .

وفي سنة ٦٩١ حرقت خزانة الكتب في قلعة الجبل بالقاهرة « فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيء كثير جداً ، كان من ذخائر الملوك فانتهبها الغلمان وبيعت اوراقا محرقة ظفر الناس منها بنفائس غريبة مابين ملاحم وغيرها وأخذوها بأبخس الأثمان » .

الى غير ذلك من أخبار حرائق تعرضت لها بعض

المكتبات ولعل جزءا من الحريق الذي اصاب بعض الكتب جاء نتيجة مصادرة وإتلاف متعمد وجاء نتيجة مصادرة واضطهاد ويكون ذلك عندما يكون الاختلاف والتنافس بين أهل المذاهب والفرق على اشده وقد ذكروا عن السلطان محمود بن سبكتكين انه قام سنة ٤٢٠ بحرق كتب الباطنية والمعتزلة واحرق منها نحو خمسين حملا من الكتب .

وكثيراً ماتعرض العلماء للمصادرة والارهاب فتعرضت كتبهم للحرق ، واشهر من اصيب بهذه المحنة الامام الكبير ابن حزم يقول عنه ابن حجر العسقلاني « تعصب عليه فقهاء المالكية بأمراء تلك الديار فمقتوه وآذوه وطردوه وحرقوا كتبه علانية وله في ذلك :

فان يحرقوا القرطاس لا يحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدرى

ومثله الفقيه عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني قال عنه العسقلاني « احرقت كتبه » لاتهامه بالفلسفة والسحر .

وكان الصوفي الأندلسي ابن ميسرة المتوفى سنة ٦٧٧ هـ قد نسبت اليه مقالات « مخالفة للدين فتتبعت كتبه بالحرق» .

واحرقت كتب الفقيه محمد بن حسن الطوسي ، « بمحضر من الناس في رحبة جامع النصر واستتر هو خوفا على نفسه بسبب ما يظهر عنه من انتقاص السلف » .

واتهم العلامة خليل بن عبد الملك المعروف بخليل الفضيلة بالقدر « فاخرجت كتبه بعد وفاته واحرقت بالنار إلا ماكان فيها من كتب المسائل (الفقه) » وامثال هؤلاء العلماء كثيرون على أن كثيراً من العلماء قد اختاروا اتلاف كتبهم بالحرق والدفن والغرق بأنفسهم ولم يدفعهم الى ذلك أحد .

وهذا يكثر بين جماعة المتزهدين ايغالا منهم في التواضع والخمول وقد عاب عليهم هذا المسلك العلامة ابن الجوزي فقال في خواطره « وهذا جهل منهم لانهم شرعوا في اطفاء مصباح يضيء لهم » .

وقد اتلف كتبه بالغرق ، الصوفي الكبير احمد بن ابي الحواري « اخذ كتبه فرمى بها في البحر وقال نعم الدليل كنت ، ولاحاجة الى الدليل بعد الوصول الى المدلول » . وقام ايضاً بدفن كتبه الصوفي يوسف بن اسباط ، وقد سأله احدهم عن فعله هذا فقال « اردت ان يكون الهم هما واحداً » اي اراد ان لاتشغله عن ذكر الله .

وكان الصوفي الكبير بشر الحافي رضى الله عنه ، اشتغل اول امره بالحديث الا انه كان لايجيز لنفسه الرواية « ودفن كتبه لأجل ذلك » .

ومن غريب مايروى عن أحدهم في ذلك ، ان الفقيه ابو سليمان الطائى الكوفي لما علم من نفسه انه لا يصبر عن كتبه عمد اليها وأغرقها في الفرات .

وهذا سفيان الثوري على جلالة قدره « اوصى بدفن كتبه وكان ندم على اشياء كتبها عن قوم ، وقال حملنى على ذلك شهوة الحديث » .

وقد هجن طريقة حرق الكتب واتلافها العلامة احمد بن محمد المقدسى صاحب الاداب الشرعية فقال « الأولى ان

تباع وقد سئل المروذى عمن اوصى أن تدفن كتبه ، فقال ما يعجبني دفن العلم » .

وانكر العلامة المبارك بن الدهان المتوفى سنة ٦١٢ على خازن دار الكتب رباط المأمونية (ببغداد) عندما أخبره أنه اتلف كتاباً من تأليف المعرى فقال له (واي شيء كان هذا الكتاب ؟ قال كان كتاب نقض القرآن ، فقال له اخطأت في اتلافه فعجب الجماعة منه وتغامزوا عليه واستشاط خازن المكتبة غضباً ، وقال له ، مثلك ينهى عن مثل هذا قال نعم لايخلو ان يكون هذا الكتاب مثل القرآن ، او خيرا منه او دونه ، فان كان خيراً منه وحاشى الله ان يكون ذلك فلا يجب ان يفرط في مثله ، وان كان دونه وذلك ما لا شك فيه فتركه معجزة للقرآن فلا يجب التفريط فيه » .

ومن الأدباء من قام باتلاف كتبه رجوعاً الى الصواب فقد ذكر عن شميم الحلي المتوفى سنة ٦٠١ هـ انه الف مقامات ادبية ثم اتلفها بعد أن وقف على مقامات الحريري وقال « الرجوع الى الحق خير من التمادي على الباطل » ومنهم من أتلف كتبه حنقا كالأديب النحوى علي بن

عيسى الربعي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ وكان قد وضع كتاباً كبيراً في شرح كتاب سيبويه في النحو « فنازعه احد التجار في مسألة فقام غاضباً وأخذ شرح كتاب سيبويه وجعله في اجانة وصب عليه الماء وغسله وجعل يلطم به الحيطان ويقول لا أجعل اولاد البقالين نحاة » وهذا من أطرف ماجاء في اتلاف الكتب .

ومن الكتاب من محا كتبه حسداً حتى لا يستفاد من خطوطها فقد كان المبارك الكرخي المتوفى سنة ٥٨٥ هـ جيد الخط وكان يكتب على طريقة ابن البواب وربما فاقه في ذلك ومع ذلك « كان ضنينا بخطه واذا اجتمع عنده شيء من خطوطه استدعى طستا وغسلها » .

ومن الكتاب من أحرق كتبه توبة الى الله لما فيها من فحش واستهتار فقد ذكر عن الأديب احمد بن ابراهيم الطرابلسي ، انه برع في أول امره بفنون الأدب وجمع فيها تصانيف نظما ونثراً ثم اذهبها ومن ذلك كتاب « عروس الافراح فيما يقال في الراح .. وستر الحال فيما يقال في الخال وغيرهما » .

وكذلك الأديب احمد بن اسماعيل قال الشعر ثم اعرض عنه في اخر عمره « بل غسل جميع ماكان عنده من نظم ونثر بحيث لم يبق منه الا ماكان ظهر من قبل ، ويقال ان ذلك لم يكن عن قصد ، وانما اتفق انه جمع اوراقا من نظمه ثم اقر منها ما لا يرتضيه ليغسله ففاجأه بعض اصحابه فقام ليلقاه وامر من كان عنده بغسل الأوراق التي عن يمين مجلسه فاشتبه الأمر عليه بحيث غسل ماكان يجب بقاءه فلما عاد سقط في يده وغسل الباقي » .

ولعل أشهر من حرق كتبه من الأدباء هو الأديب الكبير ابو حيان التوحيدي المتوفى سنة ٤٠٠ .

وقد علل مسلكه ذلك برساله قال فيها مخاطبا أحد علماء عصره :

« ... وصفت فيه بعد ذكر الشوق الي والصبابة نحوى ما نال قلبك والتهب صدرك من الخبر الذي نمى اليك فبما كان مني من احراق كتبي النفيسة وغسلها بالماء فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك ... ثم اقول ان كان ايدك الله قد ثقب خفك ما سمعت فقد ادمى اظلي ما فعلت فلهن عليك ذلك فما انبريت له ولا

اجترأت عليه حتى استخرت الله عز وجل فيه اياما وليالي وحتى أوحى الي في المنام بما تعب راقد العزم واجد فاتر النية وحث على تنفيذ ما وقع في الروع وترويع في الخاطر وانا اجود عليك الآن بالحجة في ذلك ان طالبت او بالعذر ان استوضحت لتثق بي فيما كان مني وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي ان العلم حاطك الله يراد للعمل كما ان العمل يراد للنجاة فان كان العمل قاصرا عن العلم كان العلم كلّا حتى العالم وانا اعوذ بالله من علم عاد كلا واورث ذلا وصار في رقبة صاحبه غلا وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار ثم اعلم علمك الله الخير ان هذه الكتب حوت على اصناف العلم سره وعلانيته فلم اصب من يحرص عليه طالبا على اني جمعت اكثر للناس ولطلب المثاله منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم فحرمت ذلك كله ولاشك في حسن ما اختاره الله لي وناطه بناصيتي وربطه بأمري وكرهت مع هذا وغيره ان تكون حجة علي لأني ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه اني فقدت ولدا نجيبا وصديقا وحبيبا وصاحبا قريبا ونابغا اديبا ورئيسا منيبا فشق علي ان ادعها لقوم يتلاعبون بها ويدنسون عرضي اذا نظروا فيها ويشمتون بسهوى وغلطي اذا تصفحوها ويتراؤون

نقصي وعيبي من اجلها فان قلت ولم تسمهم بسوء الظن وتقرع جماعتهم بهذا العيب فجوابي لك ان عياني منهم في الحياة هو الذي تحقق ظني بهم بعد الممات وكيف اتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من احدهم وداد ولا ظهر لي من انسان منهم حفاظ ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في اوقات كثيرة الى اكل الحضر في الصحراء والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة والى بيع الدين والمروءة والى تعاطى الرياء والسمعة ...

وبعد فلي في احراق هذه الكتب اسوة بائمة يقتدى بهم ويؤخذ بهديهم ويغشى الى نارهم منهم ابو عمرو بن العلا وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها اثر وهذا داود الطائى وكان من خيار عباد الله زهدا وفقها وعبادة ويقال له تاج الأمة طرح كتبه في البحر وقال يناجيها نعم الدليل ولكن الوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وهذا يوسف بن اسياط حمل كتبه الى غار في جبل وطرحه فيه وسد بابه فلما عوتب على ذلك قال دلنا العلم في الأول ثم كاد يضلنا في الثاني فهجرناه لوجه من وصلناه من اجل من اردناه وهذا ابو سليمان الدارني جمع كتبه في تنور

وسجرها بالنار ثم قال والله ما احرقتها حتى كدت احترق بها وهذا سفيان الثوري مزق الف جزء وطيرها في الريح وقال ليت يدى قطعت من هاهنا ولم اكتب حرفا وهذا شيخنا ابو سعيد السيرافي سيد العلماء قال لولده محمد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل فاذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار وماذا اقول وسامع يصدق ان زمانا احوج مثلى الى ما بلغك الزمان يدمع له العين حزنا واسى ويتقطع له القلب غيظا وجوى وضنى وشجى وما يصنع بما كان وحدث وبان ان احتجت الى العلم في خاصة نفسي فقليل والله شاف كاف وان احتجت اليه للناس ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس الى ان تفنى الانفاس بعد الانفاس فلم تعنّي يميني بعد هذا بالحبر والورق والجلد والقرطاس والقراءة والمقابلة والتصحيح وبالسواد والبياض وهل ادرك السلف الصالح في الدين الدرجات العلى الا بالعمل الصالح واخلاص المعتقد والزهد الغالب في كل ماراق من الدنيا فاين يذهب بنا وعلى اي باب نحط رحالنا وهل جامع الكتب الا كجامع الفضة والذهب.الى اخر ما جاء في رسالة ابن حيان عن حرق الكتب .

وكان العلامة علي بن محمد الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ قد تردد بين ابقاء كتبه وبين اتلافها لما رأى عدم اخلاص النية في تأليفها لله بل « قيل انه لم يظهر من تصانيفه في حياته شيئا وانما خصص كلها في موضع ، فلما دنت وفاته قال لشخص يثق به : الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي وانما لم أظهرها لأني لم أجد نية خالصة لله تعالى ، فاذا عانيت الموت ووقعت في النزع فاجعل يدك في يدي فان قبضت عليها وعصرتها فاعلم انه لم يقبل مني شيء منها فاتجه الى الكتب وألقها في دجلة ليلا وان بسطت ولم أقبض على يدك فاعلم انها قبلت واني ظفرت بما كنت أرجوه من النية الخالصة . قال ذلك الشخص فلما قارب الموت وضعت يدي في يده فبسطها ولم يقبض على يدي فعلمت انها علامة القبول فاظهرت كتبه بيده » .

وربما تعرضت كتب بعينها للتلف والمصادرة فقد ذكروا انه بعد وفاة الحلاج « احضر جماعة من الوراقين ، واحلفوا على أن لا يبيعوا شيئا من كتب الحلاج ولا يشتروها »

وهذا نوع من مصادرة الكتب ، وكان الحافظ مغلطاى

قد الف كتاب « الواضح المبين في من اشتهر من المتيمين » فنقم منه اشياء ومنع الكتبيين من بيع ذلك الكتاب .

ووقف العلامة تقى الدين السبكي على كتاب بعنوان الطرائف أورد فيه صاحبه احاديث مشكلة « فاخذه السبكي عنده وقطعه في الليل وغسله » .

واتهم العلامة محمد بن الحسن الشيباني صاحب ابي حنيفة عند أول قدومه الى العراق بأن معه كتاب الزندقة «فبعث الرشيد بمن يهجم على بيته وحمل معه كتبه فامر بتفتيشها ، قال محمد بن الحسن فخشيت على نفسي من كتاب يوجد معي في الحيل فقال لي الكاتب (المفتش) ما ترجمة هذا الكتاب قلت كتاب (الخيل) فرمى به ولم يحمله . صحف اسمه لأن كتاب الحيل بالحا المهملة فصحفه بالخيل ، فخلص مما أراد بنقطة واحدة » .

ومن الكتب ما تعرض للتلف بسبب الاهمام والجهل ، فهذا الواقدى يقول عنه أحمد بن حنبل ان كتبه « جعلت ظهائر للكتب » .

ويقول السخاوي عن كتب احمد بن يوسف اليسكري انه « شرع في جمع تاريخ للرواة لو قدر له أن يبيض لكان مائة مجلدة ، جمع منه في مسوداته مالا يعد ولا يدخل تحت حصر ولم يقدر له أن يبيضه ومات فتفرقت مسودات شذرٌ مذر ولعل اكثرها عمل بطائن المجلدات » .

قلت وبسبب جهل الوراقين ضاعت كثير من الكتب اذ اغلبهم يجعلون من الصاق الأوراق ببعضها البعض ورقة واحدة غليظة تقوم مقام البطانة ومن يتأمل الجلود لتلك الكتب القديمة يجد مصداق ما قلنا ، بل اني استطعت ان استخلص من جلد واحد الأوراق الأولى لعدة كتب نادرة منها ما هو اسم كتاب في طريق الحاج غاب عني اسمه وكتاب آخر في الفلك والى ذلك ، هذا فضلا عن الأوراق الأخرى التي ليست بأوائل الكتب ، وربما اتلفت اوائل الكتب وأواخرها بسبب وضع الكتاب على بطنه .

شغفهم بمطالعة الكتب

وكان شغفهم بالمطالعة نموذجا آخر من تقديرهم للكتب والحرص عليها وقد مكنهم من ذلك الفراغ والحرص التام على المعرفة وفي زمن قلة الكتب وصعوبة الحصول عليها يكون مطالعة الكتاب والتلذذ به بقدر المشقة في استحصاله وهو أمر نكاد نفقده في عصرنا الحاضر حيث سهلت المطبعة الحصول على الكتب وكثرت وجودها ومن ثم قل الحرص على مطالعتها .

وانت ستجد مبلغ الحرص الشديد عند علمائنا المسلمين على مطالعة الكتب عندما تعلم أن بعضهم لم يترك مطالعتها حتى أثناء المرض فهذا العلامة ابن تيمية (الجد) كان لايترك المطالعة ولو أصابه مرض أو حمى فيضع الكتاب عند رأسه فاذا أفاق قرأ فيه فاذا غلب عليه المرض وضع الكتاب جانبا فدخل عليه الطبيب يوما وهو كذلك فقال هذا لايحل فانك تعين على نفسك وتكون سببا لفوات مطلوبك وقال له الطبيب ايضا ان مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض فقال له : لم لا أصبر في

ذلك وأنا أحاكمك الى علمك اليست النفس اذا فرحت وسررت قويت الطبيعة فدفعت المرض قال الطبيب نعم قال له ان نفسي تسر بالعلم فتقوى الطبيعة فاجد راحه فقال له الطبيب هذا خارج عن علاجنا .

وبلغ من حرص هذا العلامة على وقته ومطالعة الكتب انه اذا دخل الخلاء امر حفيده ان يقرأ في الكتاب ويرفع صوته حتى يسمع .(١)

وكان الجاحظ من اكثر الناس شغفا بمطالعة الكتب ، فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى أنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر (٢) .

وكذلك الفتح ابن خاقان يقول ابو هفان « لم أر قط ولا سمعت من احب الكتب والعلوم اكثر من ثلاثة منهم الفتح بن خاقان فانه كان يحضر لمجالسة المتوكل فاذا اراد القيام لحاجه اخرج كتابا من كمه او خفه وقرأه في غير مجلس المتوكل الى حين عوده اليه حتى في الخلاء » وذكر

---

١ — روضة المحبين ص ٨٠

٢ — معجم الأدباء ج ٦ ص ٥٦

الجاحظ السابق الذكر واسماعيل بن اسحاق يقول : « ما دخلت عليه الا رأيته ينظر في كتاب أو يقلب كتابا او ينفضها »(١).

ومما يذكر عن الخطيب البغدادي انه « يمشي وفي يده كتاب يطالعه »(٢).

ويقول الحسن اللؤلؤى « غبرت قدمى اربعين عاما ما قلت ولا بت ولا اتكأت الا والكتاب موضوع على صدرى »(٣).

ويحدثنا على بن الجهم عن مدى اشفاقه من انتهاء الكتاب المطالع فيه فيقول : « اذا استحسنت الكتاب ورجوت منه الفائدة فلو ترانى وانا ساعة بعد ساعة انظر كم بقى من ورقة مخافة استنفاده و انقطاع المادة من قلبه ، وان كان الكتاب كثير الورق فقد تم عيشي وكمل سروري »(٤).

---

١ — المصدر السابق
٢ — تذكرة الحفاظ ٣ ص ٣١٧
٣ — الحيوان ج ١ ص ٥٢
٤ — المصدر السابق ص ٥٣

وكان ابن الرفعة لا يفارقه الكتاب حتى اثناء المرض كما هو الحال عند ابن تيمية » السابق الذكر يقول ابن حجر العسقلانى « كان مكبا على المطالعة حتى عرض ، له وجع المفاصل بحيث كان الثوب اذا لمس جسمه آلمه ومع ذلك معه كتاب ينظر اليه وربما انكب على وجهه وهو يطالع »(١).

ومنهم من لم يترك المطالعة لا في حضر ولا في سفر وهذا الفيروزابـادى ـ « كان لا يسافر الا وصحبته كتبه عدة احمال ويخرج اكثرها في كل منزله ينظر فيها ويعيدها اذا رحل »(٢).

وكان ابن المبارك يستأنس بخلوته في البيت وحده ليشتغل بالقراءة فقيل له « الا تستوحش ؟ فقال : كيف استوحش وانا مع النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه »(٣) يعنى بها كتب الحديث .

ومنهم من انشغل بالمطالعة عن الزوجة والأهل فهذا

---

١ ـ الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٨٧ ط الهند
٢ ـ بغية الوعاة ص ١١٧
٣ ـ تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٥٤

العلامة الزهرى « كان اذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء من امور الدنيا فقالت له امرأته يوما والله لهذه الكتب اشد على من ثلاث ضرائر »(١).

وقال أحدهم لزوجة الزبير بن بكار « الزبير خير رجل لأهله لا يتخذ ضره ولا يشترى جاريه قالت لهذه الكتب اشد على من ثلاث ضرائر »(٢).

ومنهم من شغلته الكتب عن النظر الى النساء فقد ذكر القاضى عياض رحمه الله في المدارك (ج ٣ ص ٣٤٣) ان الفقيه عبد الله ابي القاسم التجيبى كان شغوفا بالكتب وحدث ان « اشترى له اهله جارية وزينوها وادخلوها عليه فلما كان الليل اخذ الكتاب وكتب الليل كله ولم يلتفت اليها واقام على ذلك نحوا من شهر فلما طال على الجارية ذلك قالت له الجارية ان كان لك غرض في والا فبعنى فقال لها من انت ، قالت انا جاريتك قال انا ما اشتريت جارية ، امضى الى من اشتراك يبعك ففعلت فاقام على حاله الى ان مات » وهذا الرجل لم يصبر عن مطالعة

---

١ ــ وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥١ ط بولاق

٢ ــ تاريخ بغداد ج ٨ ص ٤٧١

الكتب حتى وهو على فراش الموت يقول القاضى عياض « كانت كتبه كلها بخطه وقد ترك سبع قناطير بخطه فلما توفى دفع جميعها الى السلطان فاخذها ومنع الناس منها . والسبب في ذلك انه لما اشتد به المرض قال له اصحابه نخشى ان يأخذ السلطان كتبك ويمنع الناس الانتفاع بحبسها عن المسلمين فوجهها اثلاثا في ثلاثة مواضع ففعل ذلك فلما كان من الغد قال لم أنم البارحة لما فقدت كتبى فردوها علي فردوا الثلثين وتركوا الثلث الذى كان في دار ابن محمد بن زيد فلما وصل الثلثان مات فقبض السلطان على ذلك وسلم الثلث الآخر »(١).

ومنهم من ترك الزواج حبا للكتب وهم كثيرون جدا استقصيناهم في بحث واسع فينظر هناك . وكان الطبيب اسحاق بن سلمان الاسرائيلي صاحب كتاب الحميات لم يتزوج فقيل له « ايسرك ان يكون لك ولد فقال : اما اذا صار لي كتاب الحميات فلا »(٢).

وكان الخطيب يقول « يستحب لطالب العلم ان يكون

---

١ ــ ترتيب المدارك ج ٣ ص ٣٤٤

٢ ــ الوافى بالوفيات ج ٨ ص ٤١٤

عزبا ما امكنه لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجة وطلب المعيشة عن اكمال الطلب »(١) وقال سفيان الثورى رحمه الله « من تزوج فقد ركب البحر فان ولد له ولد فقد كسر به ».

ويقول ابن جماعة « ترك التزويج لغير حاجة اليه او غير القادر عليه هو الأولى لا سيما للطالب الذي رأس ماله جمع الخاطر واجماع القلب واشتغال الفكر »(٢).

ونعود الى حديثنا عن شغف العلماء بالمطالعة فمنهم من نسي وقته في البحث والمطالعة فقد حدثنا ابن العلامة محمد بن يحيى الذهلى قال دخلت على ابى « في الصيف الشديد وقت القائلة وهو في بيت كتبه وبين يديه السراج وهو يصنف فقلت يا أبت هذا وقت الصلاة ودخان هذا السراج بالنهار فلو نفست على نفسك فقال : يابنى تقول هذا وانا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه والتابعين »(٣) ، يعنى كتب الحديث .

---

١ ــ تذكرة السامع ص ٧٢
٢ ــ المصدر السابق
٣ ــ تاريخ بغداد ج ٢ ص ٤١٩

وهذا القاضى عبد الملك بن حبيب يقول احد تلامذته « دخلت الى بيته بغلس حرصا على الاقتباس واستأذنت عليه فاذن لى ودخلت فاذا به جالس في مجلسه عاكفا على الكتب وقد احاطت به ينظر فيها والشمعة بين يديه تتقد فسلمت عليه فرد السلام علي وقال لي يا هذا اوقد انسلخ الصبح فقلت نعم وقد صلينا فقام الى صلاة الصبح فصلاها ثم رجع الى مقعده وقال صليت هذه الصلاة بوضوء العشاء »(١) رحمه الله .

ومن العلماء من حرم نعمة البصر فلم يمنعه هذا من المطالعة والشغف بها وكان العلامه اللغوى عبد الله بن الحسين العكبرى المتوفى سنة ٦١٦ هـ محبا للاشتغال والأشغال ليل نهار ما يمضى عليه ساعة الا وواحد يقرأ عليه أو يطالع له حتى ذكر أنه بالليل تقرأ له زوجته في كتب الادب وغيرها »(٢).

وكان الفقيه محمد بن حامد المراكشى المتوفى سنة ٧٥٢ مطموس العينين ويبصر باحداهما قليلا فكان يعطى الاجرة

---

١ — ترتيب المدارك ج ٣ ص ٤٥

٢ — ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج ٣ ص ١١٠

لمن يطالع له »(١).

ومنهم من لم يترك المطالعة في جميع الحالات كالعلامة احمد بن عبد الله المهدى من اهل القيروان « كان في الدراسة والمطالعة آية لا يكاد يسقط الكتاب من يده حتى عند طعامه ».

ومنهم من شغف بمطالعة بعض الكتب وعرف بها حتى اصبحت لقبا عليه يعرف بها فهذا العلامة ابو الحسن على ابن محمد بن على الاستراباذى المتوفى سنة ٥١٦ لقب بالفصيحى « لكثرة دراسته كتاب الفصيح لثعلب وصار له به انس »(٢).

ومثله الفقيه العلامة احمد بن محمد الاربلى المتوفى سنة ٧٢٨ لقب بالتعجيزى لحفظه كتاب (التعجيز)(٣).

وكذلك العلامة احمد بن محمد الواسطى المتوفى سنة ٧٢٩ لقب بالوجيزى لشغفه بكتاب الوجيز في الفقه لابى حامد الغزالى واعتنائه به حتى عرف به.(٤)

---

١ — الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٦٥
٢ — معجم الأدباء ج ٥ ص ٤١٥
٣ — الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٥٥
٤ — نفس المصدر ج ١ ص ٢٤٣

والعلامة الحكيم شمس الدين محمد بن ابراهيم لقب بالكلي لأنه كان يحفظ كليات القانون لابى البقاء ، توفى الكلى سنة ٦٧٥ .(١)

وفي اليمن كان الفقيه جمال الدين محمد بن عبد الله الخطابى المتوفى سنة ٨٢١ يحفظ التنبيه لابى اسحاق الشيرازى ويداوم على مطالعته وتصوير واستنباط المسائل منه فسمى التنبيهى نسبة الى هذا الكتاب .(٢)

ومن منا لم يمر عليه اسم الكافيجى وهو العلامة محمد بن سليمان المتوفى سنة ٦٧٩ احد علماء الأتراك الأفاضل عرف بالكافيجي لكثرة اشتغاله بكتاب الكافيه في النحو(٣) .

وهناك علماء كثيرون عرفوا بالكتب حتى اصبحت لقبا عليهم لامجال لذكرهم وفي هذه العجاله كفاية .

ونعود الى حديثنا عن شغف العلماء بالكتب والمطالعة فقد ذكر عن ابن دقيق العيد « انه لما ظهر الشرح الكبير

---

١ ــ الوافى بالوفيات ج ٢ ص ٣
٢ ــ تاريخ البديهى « مخطوط »
٣ ــ الاعلام ج ٦ ص ١٥٠

للرافعي اشتراه بالف درهم وصار يصلى الفرائض فقط واشتغل بالمطالعة الى ان انهاه مطالعة »(١).

ومنهم من بلغ به الشغف بالكتب الى أن يوصى بدفنها في قبره يقال ان محمد بن الوليد المعروف بولاد النحوى « لما حضرته الوفاة اوصى ان يدفن معه كتاب سيبويه »(٢).

وقال ابن بركات السعيدى النحوى المتوفى سنة ٤١٣ « ادركت خرزاد النجيرمى ورأيته ماشيا وهو شيخ كبير اللحية مدور العمامة وبيده كتاب وهو يطالع فيه في مشيه »(٣).

وكان سبب موت العلامة احمد بن يحيى المعروف بثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ ، مطالعته كتابا في الطريق يقول من ترجم له « انه كان يوم جمعة وقد انصرف من الجامع بعد صلاة العصر وكان يتبعه جماعة من اصحابه الى منزله فلما صار الى درب باب الشام اتفق ان احدهم

---

١ — الأدفوى : الطالع السعيد ص ٥٨٠

٢ — انباه الرواة ج ٣ ص ٢٢٤

٣ — المصدر السابق ج ٤ ص ٦٦

يسير على دابة وخلفه خادم على دابة وكان قد قلق واضطرب وكان ابو العباس ثعلب قد حمّ ما يكاد يسمع الكلام الا بعد تعب وكان في يده دفتر ينظر فيه وقد شغله عما سواه فصدمته دابة الخادم وهو لا يسمع حسها فسقط على رأسه في هوة من الطريق فلم يقدر على القيام فحمل الى منزله وهو كالمختلط يتأوه من رأسه وكان سبب وفاته ذلك »(١) .

وكان أبو سعيد السكرى كثير الكتب ولا يفارقه كتاب يطالعه وبلغ الشغف بالمؤرخ علي بن موسى بن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ هـ ان لا يفارق الكتاب حتى في أيام الراحة يقول ابنه « ومما شاهدت من عجائبه انه عاش سبعا وستين سنة ولم أره يوما تخلى عن مطالعة كتاب أو كتب ما يخلده حتى ان ايام العيد لا يخليها من ذلك ولقد دخلت عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكتب فقلت ياسيدي في هذا اليوم لا تستريح فنظر إلي كالمغضب وقال اظنك لا تفلح أبداً أترى راحة في غير هذا والله لأحسب راحة تبلغ مبلغها ولو وددت ان الله

---

١ — نفس المصدر ج ١ ص ١٥٠

يضاعف عمرى حتى أتم كتاب (المغرب) على غرضى »(١).

وللمذكور في مطالعة الكتب وحبها:

يا مفنياً عمـــره في الكـــأس والوتـــر
وراعيـــا في الدجـــى للأنجم الزهـــــر
يبكـى حبيبـــا جفـــاه أو ينـــادم من
يهفـــو لديـــه كغصن باسم الزهـــــر
منعّمـــــــا بين لذات يمحقهـــــــا
ولا يخلـــــد من فخـــــــر ولا سير
وعـــاذلا لى فيمـــــا ظلت اكتبـــــه
يبدى التعجب من صبري ومن فكرى
يقـــول مالك قد افنـــيت عمـــرك في
حبر وطـــــــرس عن الأغصان والحبر
وبت تسهـــر طول الليـــــل في تعب
ولا تنـــي أمـــد الأيـــام في ضجـــــر
اقصر فانى ادرى بالـــذى طمـــحت
لافقـــه همتـــى واسأل عن الأثـــــر

---

١ ــ نفس المصدر ج ١ ص ١٤٨

واسمع لقـــول الـــذي تتلى محاسنـــــه
من بعـد ماصار مثلى التـــرب كالسور
جمال ذى الأرض كانـوا في الحيـاة وهـم
بعـــد الممـــات جمال الكـــتب والسير

وقد بلغ بهم الادلال على الكتب والولوع بها الى درجة أنهم يتفاءلون بها أو يتشاءمون بها وقد ذكر ابن خلكان ان كتاب (مثالب الوزيرين) لابي حيان التوحيدى ، من الكتب المحذورة ومامملكه احد الا وانعكس حاله ، يقول ابن خلكان « وقد جربت ذلك وجربه غيرى على ما أخبرنى من أثق به » .

ويعلل ياقوت سبب تشاؤم الناس بكتاب المقتضب للمبرد وعدم انتفاعهم بشؤم اخذ ابن الراوندي الزنديق هذا الكتاب عن مؤلفه « فكانه عاد على هذا الكتاب شؤم هذا الزنديق » وكل ذلك لايتأتى الا لكثرة اقبالهم على الكتب ومعايشتهم لها المعايشة التامة .

شغفهم بالتأليف ومنهجهم في البحث

وقد اهتموا بتأليف الكتب كما شغفوا بمطالعتها والبحث فيها ومنهم من لم يضع القلم من الكتابة حتى اخر رمق من حياته فقد حدثنا السبكى عن واحد من هؤلاء وهو الفقيه الزاهد ابو بكر بن السنى انه كان يكتب الحديث فوضع القلم في انبوبة المحبرة ورفع يديه يدعو الله تعالى فمات ✪(١).

ومن العلماء من شغله التفكير في مسائل العلوم والتأليف فيها عن الشعور بمن حوله فقد حدثنا القاضى عياض ان الفقيه احمد بن عبد الملك الأشبيلى المتوفى سنة ٥٤٩ هـ زاره صديق له الى بيته في يوم عيد فوجده داخل داره وبابه مفتوح فجلس ينتظره وأبطأ عليه فارسل اليه فخرج وهو ينظر في كتاب فلم يشعر بصديقه حتى عثر

✪ ومثله أبو حكيم عبد الله بن ابراهيم الخيرى المتوفى سنة ٤٧٦ « كان يكتب يوما وهو مستند فوضع القلم من يده وقال ان هذا موت مهنا طيب ثم مات » .

١ ــ السبكى : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٩٦

فيه لاشتغال باله بالكتاب فتنبه حينئذ له وسلم عليه واعتذر اليه من احتباسه بشغله بمسأله عويصة لم يمكنه تركها حتى فتح الله عليه فيها فقال له الرجل في ايام عيد ووقت راحة مسنونة فقال اذا علمت بهذه ان النفس انصبت الى هذه المعرفة والله ما لي راحة ولا لذة في غير النظر والقراءة .(١)

وحدث عن شغفهم بالبحث ولاحرج والمجال فيه واسع .

وكانت لعلماء المسلمين طرق عجيبة في التأليف لم أجد أحدا استوفى حقها بالبحث من المعاصرين وقد كتب في هذا الموضوع احد المستشرقين كتابا بعنوان ، « مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمى » فلم يوفه حقه ولم يستشف هذا المستشرق طبيعة البحث الاسلامي كمنهج خاص بالاسلام . ونحن هنا سنورد نوادر علماء المسلمين في ذلك مكتفين بالنقل دون التمحيص لأن البحث متشعب ومتعدد الاتجاهات وكل الذين تناولوا هذا

---

١ ــ القاضى عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٦٣

الموضوع تناولوه من الجانب السهل وما بالك باحدهم يضع كتابا كبيرا بعنوان (مناهج التأليف عند العلماء المسلمين) فتتصفح هذا الكتاب فتجده يتناول بضعة كتب شهيرة في الأدب العربي ويقوم بتلخيصها وياليته قام بذلك على الوجه التام وانما نقل نماذج من مقدمات تلك الكتب وقطعاً مختلفة من نصوصها واعتبر هذا الأمر كافيا وهيهات فالأمر اصعب والطريق طويل لايتأتى لكثير من المعاصرين الغارقين في المنهج الأوربي المخالف تماما لطبيعة حضارتنا الاسلامية .

وفي الكتابات الاسلامية اشترك النقل والنقد او ما عرف عندهم بالرواية والدراية وكثير من العلماء المسلمين من لم يعول على النقل بخلاف ما يشاع عنهم فقد ذكر عن الباقلانى انه كان « ورده في كل ليلة عشرون ترويحة ما يتركها لا في حضر ولا في سفر وكان اذا صلى العشاء وقضى ورده وضع الدواة بين يديه وكتب خمسا وثلاثين ورقة تصنيفا من حفظه وكان يذكر أن كتابته بالمداد اسهل عليه من الكتابة بالحبر فاذا صلى الفجر دفع الى بعض أصحابه ما صنفه في ليلة وأمره بقراءته عليه وأملى عليه

الزيادات فيه »(١) وقال ابو بكر الخوارزمى « كل مصنف في بغداد انما ينقل من كتب الناس الى تصانيفه سوى القاضى ابى بكر الباقلانى فان صدره يحوى علمه وعلم الناس » وقال علي بن محمد الجزرى يهم القاضى ابو بكر الباقلانى « بان يختصر ما يصنعه فلا يقدر على ذلك لسعة علمه وكثرة حفظه »(٢).

ومن أمثال القاضى ابي بكر الباقلانى كثير من كبار الحفاظ وفطاحلة العلماء تركوا اسلوب النقل جانبا وأخذوا انفسهم على البحث والتدقيق منهم جماعة وصل الينا علمهم كالعلامة ابو الثنا محمود المتوفى سنة ٧٢٥ هـ قال الصفدى رأيته يكتب في تفسيره من خطه من غير مراجعة (٣).

وذكر ابن رافع ان العلامة على بن عبد الكافى السبكى المتوفى سنة ٨٧٦ هـ يكتب مؤلفاته دون مراجعة لكتب اخرى بل انه ينقل النصوص الطويلة من حفظه . يقول

---

١ ــ تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٨٠

٢ ــ المصدر السابق ج ٥ ص ٣٨٠

٣ ــ الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٢٨

ابنه مؤلف طبقات الشافعية « حكى ابن رافع قال سبقنا العلامة على بن عبد الكافى السبكى الى البستان فجئنا بعده فوجدناه نائما فما اردنا التشويش عليه فقام من نومه ودخل الخلا على عادته وكان يريد أن يكون على وضوء دائما فلما دخل ظهر لنا كراس تحت رأسه فأخذناه فاذا هو من (شرح المنهاج) وكتب عن ظهر قلب نحو عشر اوراق فنظرها رفيقى الذي كان معي وقال ما أعجب لكتابته لها من حفظه ولا مما نقله من كلام الرافعى والروضة وانما اعجب من نقله عن سليم والمحرر وابن الصباغ في الشامل ما نقل ولم يكن عنده غير المنهاج ودواة وورق ابيض وكنا قد وجدنا فيها نقولات عنهما »(١) .

ويقول ابنه شارحا طريقته في التأليف انه « كان يكتب من حفظه وكنت اراه يكتب كثيرا ثم يفكر ثم يكتب وربما كتب المتن (من شرح المنهاج) ثم نظر الكتب ثم وضعها من يده وانصرف الى مكان آخر وجلس ففكر ساعة ثم كتب . وكثير من مصنفاته اللطاف كتبها في درج ورق المراسلات يأخذ أوصالها ويثنيها طولا ويجعل منها

---

١ ــ طبقات الشافعية للسبكى ج ٦ ص ٢١٠

كراسا ويكتب فيه لأنه ربما لم يكن عنده ورق كراريس فيكتب فيها من رأس القلم وما ذلك الا في مكان ليس عنده فيه لا كتب ولا ورق النسخ(١).

وهكذا كان السبكى يجمع بين طريقة النقل والنقد الا في حالات نادرة كان يستعين فيها بالكتب ولا يعتمد في ذلك على حافظته .

وكان ابن سينا واحداً من اولئك العلماء الذين لم يعولوا على النقل في مصنفاته يقول تلميذه الجوزجانى « طلبت منه اتمام كتاب الشفاء فاستحضر ابا غالب وطلب الكاغد والمحبرة فاحضرهما وكتب الشيخ في قريب من عشرين جزءاً على الثمن بخطه رؤوس المسائل وبقى فيه يومين حتى كتب رؤوس المسائل كلها بلا كتاب يحضره ولا أصل يرجع اليه بل من حفظه وعن ظهر قلبه ثم ترك الشيخ تلك الأجزاء بين يديه وأخذ الكاغد فكان ينظر في مسألة ويكتب شرحها فكان يكتب في كل يوم خمسين ورقة حتى أتى على جميع الطبيعيات والالهيات »(٢) .

---

١ — نفس المصدر والصفحة .

٢ — القفطى : تاريخ الحكماء ص ٤٢٤

هذا ابن سينا يضع رؤوس المسائل التي يتحدث عنها ــ أو خطة عمله في الكتاب ــ ثم يشرح تلك المسائل . وطريقة ابن سينا تلك هي نفس الأسلوب المتبع في الأبحاث العلمية الآن عند اكثر الدارسين .

ويقول الأدفوى عن ابن دقيق العيد « انه كان يملى شرح الالمام من لفظه »(١) .

ويقول الغبرينى عن العلامة ابو الحسن على بن احمد الحرالي المتوفى سنة ٦٣٨ ، « زهد حتى في الكتب فانه لم يكن عنده منها شيء وكان يفتقر في مواعيده الى مطالعة او مراجعة شيء لاحاطته وتحصيله وجميع ما صنفه من الكتب ماكان يراجع فيه كتابا ولا يطالع فيه سوى مجرد فكرة وتسديد نظره »(٢) .

وهذا العلامة محمد بن عبد الواحد المعروف بثعلب يقول من ترجم له إنه « املى جميع ما ينسب اليه من التصانيف من لسانه من غير صحيفة »(٣) .

---

١ ــ الطالع السعيد ص ٥٨١ للادفوى

٢ ــ الغبرينى : عنوان الدرايه ص ١٤٨

٣ ــ انباه الرواة ج ٣ ص ١٧٢

وهذا الغالب على اكثر العلماء المتبحرين في علومهم اما غالب العلماء وعامتهم فقد عيب عليهم الاعتماد على النقل البحت وكان العلامة ابن حجر العسقلانى يستغرب على كثير من معاصريه اعتمادهم التام على النقل ويقول الصفدى في ترجمة ابن سيد الناس « كان صحيح العقيدة جيد الذهن يفهم النكت العقلية ويسارع اليها ولكنه جمد ذهنه لاقتصاره على النقل »(١) وينكر السخاوى على جماعة من معاصريه لهذا السبب يقول في ترجمة العينى عند حديثه على كتابه شرح البخارى « استمد فيه من شرح شيخنا ابن حجر العسقلانى بحيث ينقل منه الورقة بكاملها وربما اعترض لكن قد تعقبه شيخنا في مجلد حافل ».(٢) وكان العلامة ابن سبط العجمى واحدا من هؤلاء النقلة « يقول ابن حجر في وصف مؤلفاته ممتعة ومحررة دالة على تتبع زائد واتقان وهو قليل المباحث فيها كثير النقل »(٣).

ويصف طريقة العلامة على بن حسين بن زكنون

---

١ ــ الوافى بالوفيات ج ١ ص ٢٩١
٢ ــ الضوء اللامع ج ١٠ ص ١٣٣
٣ ــ المصدر السابق ج ١ ص ١٤٣

المتوفى سنة ٨٣٧ في كتابه « الكواكب الدرارى » قائلا « وكتابه هذا في مائة مجلد وعشرين طريقته فيه انه اذا جاء لحديث الافك ــ مثلا ــ يأخذ نسخة من شرحه للقاضى عياض فيضعها بتمامها واذا مرت به مسألة فيها تصنيف مفرد لابن القيم او شيخه ابن تيميه او غيرهما وضعه بتمامه ويستوفى ذلك الباب من (المغنى) لابن قدامه أو نحوه » .(١)

وتلك أساليبهم في النقل وكان رجوعهم الى المصادر والتثبت منها جانباً من جوانب الامانة العلمية عندهم ولم يجدوا في التنبيه عليها وذكرها باسمائها غضاضة فنادرا ما تقف على مصنف لهم لم يشر فيه الى المصادر التي استقى منها في كتابه وهذه قاعدتهم وربما اشاروا الى ذلك في مقدمة كتبهم وقد مر بنا اعتماد الصولى على مكتبته الاعتماد الكلى وكان العلامة السبكى قبل الشروع في بحثه يذهب الى خزانة كتبه ويقلب فيها ثم يعود الى مكتبه ويضع كتبه(٢) وكان العكبرى الضرير اذا اراد ان يصنف كتابا احضرت له عدة مصنفات في ذلك الفن وقرأت عليه فاذا

---

١ ــ المصدر السابق ج ٥ ص ٢١٤

٢ ــ طبقات السبكى ج ٦ ص ٢١٠

حصله في خاطره املاه على الكاتب فكان بعض الفضلاء يقول « ابو البقاء العكبرى هو تلميذ تلامذته يعنى هو تبع لهم فيما يلقونه عليه» (١) وهكذا كان اختيار الكتب والمراجع في موضوع معين عند عالم ضرير فما بالك بغيره ولهذا السبب كان الجاحظ يحرض الباحث على استكمال مراجعه فيقول « ولا يعلم حتى يكثر سماعه ولابد أن تكون كتبه اكثر من سماعه ولا يعلم ولا يجمع العلم ولا يختلف اليه حتى يكون الانفاق عليه من ماله الذّ عنده من الانفاق من مال عدوه ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب عنده اكثر من انفاق عشاق القيان لم يبلغ من العلم مبلغا رضيا وليس ينتفع بانفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب ايثار الاعرابى فرسه باللبن على عياله »(٢) .

وكان لانتشار الكتب وتشعبها في المباحث دافعا لكثير من العلماء على الاعتماد عليها حتى انساهم ذلك حفظهم ومنهم من أحجم عن الافتاء في مسائل العلم حتى تحضر كتبه كالعلامة الحافظ جرير بن عبد الحميد الضبى قال

---

١ — ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب

٢ — الحيوان ج ١ ص ٥٥

ابو الوليد كنت اجالسه بالرى وكتب عنى حديثين فقلت له حدثنا فقال نسيت وكتبى غائبه وأنا أرجوا ان اوتى بها فبينا نحن اذ ذكرت يوما شيئا من الحديث فقلت احسب كتبك قد جاءت قال اجل فقلت لابي داود ان جليسنا جاءته كتبه من الكوفه اذهب ننظر فيها فاتيناه فنظرت في كتبه أنا وأبو داود[1] .

وقد بلغ الرجوع الى المصادر عند بعض العلماء الى درجة انهم لايستطيعون الاجابة على شيء من المسائل دون العودة اليها ولهم في ذلك مواقف ظريفة فقد ذكر ابن النديم في (الفهرست) ان ابا الحسن علي بن المغيرة بن الأثرم راوى كتب أبي عبيده والأصمعى كان لايفارقهما قال ثعلب كنا عند الأثرم صاحب الأصول وهو يملى شعر الراعى قال فلما استتم المجلس وضع الكتاب من يده وكان معى يعقوب بن السكيت فقال لابد من أن أسأله عن أبيات للراعى قال فقلت لاتفعل فلعله لا يحضره جواب فتكون هجنته على رؤوس الملأ قال لابد من ذلك ثم وثب فقال مايقول استاذنا في قول الراعى :

---

١ ــ الذهبى : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٣٩٥

وافضن بعـــــد كضومهـــــن بحسرة
من ذى الأبـــــارق اذرعين حفيـــــلا

قال فتلجلج الشيخ وتنحنح ولم يجب شيئا فقال ما تقول في بيته :

كدخـــــان مرتجل باعلى قلعـــــــة
غرثـــــان ضرم عرفجـــــا مبلـــــولا

قال فعاد الى تلك الصورة ورأينا في وجهه الكراهية والانكار فقال الأثرم منقل استعان بذقنه فقال يعقوب هذا التصحيف انما هو بذقنه فقال الأثرم تريد الرياسة بسرعة ودخل بيته .(١)

وما أكثر امثال الأثرم في عصرنا الحاضر حتى أنك لاتكاد تقف على واحد منهم يملى عليك قصيدة كاملة من حفظه .

وقد أنكر الرامهزى على بعض علماء عصره في القرن الرابع شدة اعتمادهم على الكتب فقال « واقتصروا على

---

١ ــ الفهرست لابن النديم ص ٦٢ ط طهران

ابتياع صحف درسوها واستعدوا في الشغب عليها فان حفظ احدهم في السنن شيئا فمن صحيفة مبتاعة كفاه غيره مؤونة جمعه وشرحه وتبويبه من غير رواية ولا دراية فان تعلق شيء منها يسير خلط الغث بالسمين والسليم بالجريح ثم فخم ما لفق من المسائل ماشاء وانها والسنن المأثورة ضدان فان قلت عليه اسناد حديث تحير فيه تحير المفتون وصار كالحمار في الطاحون وان شاهد المذاكرة نسمع ما ليس في وسعه الجريان فلجأ الى الازراء بفرسانه واعتصم بالطعن عن الركض في ميدانه »(١).

ومع ذلك فربما كان لعدم معرفة المظان في الكتب في ازراء العلماء بعضهم البعض وقد كان العلامة على بن عبد الكافى السبكى قد بحث مع ابن جماعة الكنانى فنقل عن الشيخ ابن اسحاق الشيرازى شيئا في الأصول فلما رجع بعث اليه قاصدا يقول له المسألة التي ذكرها ماهي في (اللمع) فكتب اليه :

سمعت بانكـــــار ما قلتـــــــه
عن الشيـخ اذ لم تكـن في (اللمـــع)

---

١ ــ المحدث الفاضل ص ٢١٨

وينقـــــــل ذلك من شرحـــــــه
وخير خصال الفقيـــــه الـــــورع

لو وقفت على شرح (اللمع) ما انكرت النقل فانظر فيه فانه كتاب مفيد فلما وقف ابن جماعة الكنانى على الجواب تأمل تأملا كثيرا وكان اسنّ من السبكى .[1]

ومن العلماء من يتضايق اذا طلب منه اظهار مصادر نقله فتحدث لهم هناك مواقف طريفة فقد « حدث للعلامة عمر بن ابي الحرم الدمشقى المتوفى سنة ٧٣٨ ان بحث مع احد طلبته في موضوع فطلب منه الطالب مصدره الذي نقل منه فاخذ النعل وكشف رأس الطالب وصار يضربه ويقول هذا النقل الذي طلبته »[2] .

---

١ ــ الدرر الكامنة ج ٣ ص ٦٢
٢ ــ نفس المصدر ج ٣ ص ١٤٤

سرقة الكتب

وقد شكا كثير من العلماء من سرقة مؤلفاتهم ونسبتها الى غيرهم وهذا كثير الوقوع في كل عصر وزمان وكان العلامة محمد بن حبيب على مكانته الكبيرة يقول عنه المرزباني « كان يغير على كتب الناس فيدعيها ويسقط اسماءهم فمن ذلك الكتاب الذي الفه اسماعيل بن ابي عبيد واسمه ابي عبيد معاوية وكنيته في الغالب على اسمه فلم يذكرها لئلا يعرف وابتدأ فساق كتاب الرجل من أوله الى آخره ولم يغير فيه حرفا ولازاد فيه »(١) .

ويقال ان كتب الخطيب البغدادى سوى التاريخ « مستفادة من كتب الصورى كان الصورى بدأ بها ولم يتمها وكانت للصورى اخت بصور مات وخلف عندها اثنى عشر عدلا محزوما من الكتب فلما خرج الخطيب الى الشام حصل من كتبه ما صنف منها كتبه » .

---

١ ــ الوافى بالوفيات ج ٢ ص ٣٢٦

وقد اتهم الصولى بسرقة كتاب « اخبار سديف » ونسبته اليه يقول ابن النديم « وهذا الكتاب عول في تأليفه على كتاب المرثدي في الشعر والشعراء بل نقله نقلا وانتحله وقد رأيت دستور الرجل خرج من خزانة الصولى فافتضح به »[١].

وقد كان العلامة الحازمى مجللا عند ياقوت قبل أن يطلع على كتابه في (المتفق والمختلف) من اسماء البلدان ثم اتضح له انه أخذه برمته من كتاب الاسكندرى يقول : « أوقفنى صديقنا محمد بن محمود النجار على مختصر اختصره الحافظ ابو موسى محمد بن عمر الأصفهانى من كتاب الفه ابو الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندرى فيما ائتلف واختلف من اسماء البقاع فوجدته رجلا ضابطا وقد أنفد في تحصيله عمرا وأحسن فيه عينا وأثرا ووجدت الحازمى رحمه الله قد اختلس هذا الكتاب وادعاه واستجهل الرواة فرواه ولقد كنت عند وقوفى على كتابه ارفع قدره من علمه وأرى أن مرماه يقصر عن سهمه الى أن كشف الله جبنته وتمخض المخض عن زبدته فأما أنا فكل

---

١ — الفهرست لابن النديم ص ١٦٨ ط طهران

ما نقلته من كتاب نصر فقد نسبته اليه واحلت عليه ولم أنصبه ولا اجهلت ذكره وتعبه »[1].

ومن العلماء من زور مصادره واخفاها . ويقال انه « لما وضع ابو عبيد كتب الفقه والرد بلغ ذلك حسين ابن على الكرابيسي بعض كتبه فنظر فيه فاذا هو يحتج عليهم بحجج الشافعى ويحكى لفظه وهو لايذكر الشافعى فغضب الكرابيسي ولقيه فقال يا أبا عبيد تقول في كتبك قال ابن الحسن وقال فلان وتدغم ذكر الشافعى وقد سرقت احتجاجه من كتبه ما أنت وهل تحسن شيئا انما انت راويه »[2].

وكثير من العلماء من قامت شهرته على كتب ليست في الحقيقة من تأليفه وربما قام بجمع نصوصها من كتب معينة وكان من اشهر هؤلاء العلامة جلال الدين السيوطى الذي ربما لفق بين كتب معينة في فن واحد ووضع منها كتابا حافلا وربما اختصر واضاف الى كتاب معين ثم ابدل عنوانه ونسبه اليه وهكذا . وكان آخر هؤلاء العلماء

---

١ ــ معجم البلدان ج ١ ص ١١ ط دار صادر

٢ ــ المحدث الفاضل ص ٢٥٠

المنتحلين العلامة الهندى محمد صديق خان القنوجي المتوفى سنة ١٣٠٧ الذي انتحل كتبا كاملة من مؤلفات العلامة الشوكانى وابن الأمير الصنعانى ونسبها الى نفسه وحدث ولا حرج عن المتأخرين ومابالك باحدهم يصنع كتابا عن ولاة مصر فتجده مأخوذا من عباراته من الكتاب المسمى بنفس الاسم للكندى وهكذا .

وفي القديم اتضح لكثير من العلماء أن كتاب الفصيح لثعلب « انما هو تصنيف الحسن بن داود الرقى وادعاه ثعلب وقيل ليعقوب بن السكيت »(١).

وقد اكتشف العلامة السخاوى ببصيرته الثاقبة كثيراً من السرقات العلمية يقول في ترجمة محمد بن عبد الدائم النعيمى « له شرح العمدة لخصه من شرحها لشيخه ابن الملقن من غير افصاح بذلك مع زيادات يسيرة وعابه شيخنا ابن حجر العسقلانى بذلك »(٢).

ويقول في ترجمة ابن الكركى « وكتابه النجوم الزاهرة في اخبار قضاة مصر والقاهرة » وقد رأيت هذا الكتاب

---

١ — الوافى بالوفيات ج ٨ ص ٢٤٥

٢ — الضوء اللامع ج ٧ ص ٢٨٢

خاصة وهو مختصر لخص فيه رفع الأصر لابن حجر العسقلاني من نسختين وكتب من هوامشها ما اثبته من تراجم من تأخر وزاد اشياء منكرة »(١) واشياء من هذا كثيرة .

واكتشف ابو حاتم السجستاني في القرن الثالث ان (الاخفش اخذ كتاب ابي عبيدة في معاني القرآن فاسقط منه اشياء أو ابدل منه أشياء قال ابو حاتم ــ فقلت له اي شيء هذا الذي تصنع من هذا ، من اعرف بالعربية انت او ابو عبيده ؟ فقال الكتاب لمن اصلحه وليس لمن افسده فلن يلتفت الى كتابه وصار مطرحا »(٢) .

وقال بعض العلماء وقد اطلع على شرح اللمع للحسن ابن اسد الفارقي :

« من اين لابن اسد في ميافارقين (مدينته) الا ما ينقله من كتب المصنفين وانما (كتابه) من تصنيف ابي سعيد السيرافي وبعض تصانيف ابن جني وليس ذلك

---

١ ــ المصدر السابق ج ١٠ ص ٣١٥

٢ ــ انباه الرواة ج ٢ ص ٣٧

بقليل فانه نقل شرح ابي سعيد بخطه وهو فيما بلغنى وقف بخزانة جامع ميافارقين » .(١)

وربما اتهم بعضهم بسرقة كتب الآخرين وادعاها له ولم تصح تلك التهمة وهذا يكثر بين المتنافسين من العلماء المعاصرين لبعضهم البعض ، وقد اتهم العلامة احمد ابن عمار المهدوى المغربي المتوفى سنة ٤٤٠ هـ بشيء من ذلك فقد « الف كتبا كثيرة النفع مثل كتاب التفصيل وهو كتاب كبير في التفسير ولما ظهر هذا الكتاب في الأندلس قيل لمتولي الجهة التي نزل بها من الأندلس ليس الكتاب من تأليفه واذا أردت البينة على ذلك فخذ الكتاب اليك واطلب منه تأليف غيره ففعل ذلك وطلب غيره فالف له التحصيل وهو كالمختصر منه »(٢).

وربما حدث في الحضارة الاسلامية ماهو العكس من ذلك .

فزور بعض العلماء نسبة مؤلف له الى عالم آخر خشية من اذية الناس له كما هو الحال عند مؤلف كتاب

---

١ — المصدر السابق ج ١ ص ٢٩٥

٢ — المصدر السابق ج ١ ص ٩١

(المظنون به على غير أهله) المنسوب لحجة الاسلام الغزالى وكتب اخرى كثيرة نسبت الى هذا العالم ككتاب (سر العالمين) وكتاب (التبر المسبوك) وغيرهما وكذلك نسبت عدة كتب الى فخر الدين الرازى وهي ليست من تأليفه وأخرى الى ابى منصور الثعالبي وابن قتيبة وغيرهما .

وقد حدثنا حماد بن اسحاق بن ابراهيم الموصلى عن الكتاب المنسوب الى والده في الأغاني قال « ما الف هذا الكتاب يعنى كتاب الأغانى الكبير ولا رآه والدليل على ذلك ان اكثر اشعاره المنسوبة انما جمعت لما ذكر معها من الأخبار وما غنى فيها الى وقتنا هذا او ان اكثر نسبة المغنين خطأ والذي الفه ابي من دواوين غنائهم يدل على بطلان هذا الكتاب وانما وضعه وراق كان لأبي بعد وفاته سوى الرخصة التي هي اول الكتاب فان ابى الفها »(١).

ويستغرب ابن النديم في القرن الثالث لمن يتعب نفسه في تأليف كتاب ويجهد في بحثه ثم ينسب تعبه لشخص آخر او شخص موهوم يقول « ان رجلا فاضلا يجلس

---

١ ــ الفهرست لابن النديم ص ١٥٨ ط طهران

ويتعب ويصف في قريحته ليخلد غيره اما موجودا او معدوما ضرب من الجهل »(١).

على أن كثيراً من العلماء حرصوا على نسبة كتبهم اليهم ولم يتنازلوا عن نسبتها الى غيرهم تحت اي تأثير كان يقول ياقوت في مقدمة كتابه (معجم الأدباء ج ١ ص ١١) « واعلم لو أنى اعطيت حمر النعم وسودها ومقانب الملوك وبنودها لما سرنى ان ينسب هذا الكتاب الى سواي وان يفوز بقصب السبق إلّاي لما قاسيت في تحصيله من المشقة وطويت في تكميله الشقة »(٢) .

والف العلامة ابو غالب الأندلسى كتابا في اللغة « فبذل له الملك مجاهد العامرى ملك دانيه الف دينار ومركوبا وكساء على أن يجعل الكتاب باسمه فلم يقبل ذلك ابو غالب وقال كتاب ألفته لينتفع به الناس واخلد فيه همتى اجعل في صدره اسم غيرى واصرف الفخر له لا أفعل ذلك . فلما بلغ هذا مجاهد استحسن انفته وهمته

---

١ ــ المصدر السابق ص ٤٢٣

٢ ــ ياقوت : معجم الأدباء ج ١ ص ١١

واضعف له العطاء وقال هو في حل من ان يذكرني فيه »(١) .

على ان كثيرا من العلماء المتأخرين تنازلوا عن شرف نسبة كتبهم اليهم ونسبوها الى جماعة من الملوك الذين احسنوا اليهم وفي اليمن كان الملك الأشرف الرسولى المتوفى سنة ٨٠٣ مغرما بنسبة الكتب اليه فربما امر جماعة من العلماء ان يؤلفوا كتبا باسمه(٢) وكان القاضى رضى الدين ابو بكر بن محمد النزارى الصبرى قد وضع اكثر الكتب المنسوبة الى الملك الأفضل الرسولى المتوفى سنة ٧٧٨ باسم هذا الملك .(٣)

هذا واذا علمنا حرص العلماء في نسبة الكتب اليهم نتساءل عن الدوافع التي تجعلهم يتحملون المثقة القصوى في مقابل ذلك الفخر بتلك الكتب وقد صرح بعض العلماء بشيء من تلك الدوافع فقال الحكيم الترمذى « ما وضعت حرفا على حرف لينقل عنى ولا لينسب الى شيء

---

١ ــ نفح الطيب ج ٢ ص ١٤٠

٢ ــ الضوء اللامع ج ٢ ص ٣٠٠

٣ ــ الفاسى : العقد الثمين ج ٥ ص ٩٦

منه ولكني كنت اذا اشتد على وقتى أتسلى بمصنفاتي »(١) . ويصرح ياقوت بانه جمع كتابه لا لمال يحصل عليه او منصب يعتليه وانما كان ذلك حبا في البحث وشغفا به يقول « وانما تصديت لجمع هذا الكتاب لفرط الشغف والغرام لا لسلطان أجتديه ولا لصدر ارتجيه »(٢) .

والغالب على كثير من العلماء انهم الفوا كتبهم بدافع الرغبة في الارشاد والنصح للمسلمين بغية الثواب وهذا عام في كل من الف في المواضيع الدينية .

ومنهم من وضع كتبه بأمر من احد الملوك وهذا كثير جدا ونحن نكتفى هنا بذكر بعض منهم . ويقال ان سبب وضع العلامة محمد بن اسحاق كتابه في التاريخ « انه دخل على المهدى وبين يديه ابنه فقال له اتعرف هذا يا ابن اسحاق ، قال نعم هذا ابن امير المؤمنين قال اذهب فصنف له كتابا منذ خلق الله تعالى ادم الى يومك هذا قال فذهبت فصنفت له هذا الكتاب فقال له طولته يا ابن

---

١ — لسان الميزان ج ٥ ص ٣٠٨

٢ — معجم الأدباء ج ١ ص ١٠

اسحاق اذهب فاختصره قال فذهبت فاختصرته فهو هذا الكتاب المختصر وألقي الكتاب الكبير في خزانة المهدى »[1].

وفي المدارك[2] للقاضى عياض انه « وصل الى الحكم ملك الأندلس كتاب في فقه مالك شرع فيه بعض اصحاب اسماعيل القاضى وبوبه وقدره ديوانا جامعا لقول مالك خاصة لا يشاركه فيه قول احد من اصحابه باختلاف الروايات ومضى للمؤلف فيه مقدار خمسة اجزاء ونحوها واخترمته المنية عن تمامه فلما رآه الحكم اعجبته بساطته وحرص على اكمال الفائدة فذاكر قاضيه وسأله هل عندهم من يكمله على الرغبة المطلوبة فقال له نعم بشرط سماح أمير المؤمنين بخزانة كتبه للبحث عن اقوال مالك حيث كانت فقال الحاكم افعل على ضنانتى بها حرصا على اكمال الفائدة فسمى له الفقيهين ابا بكر المعيطى القرشي وابا عمرو المكودي فمكنهما والفا كتاب الاستيعاب الكبير في مائة جزء بلغا فيه النهاية فلما تم الكتاب سرّ به ووصل كل واحد منهما الف دينار » .

---

١ ــ تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٢١

٢ ــ ترتيب المدارك ج ٤ ص ٦٣٤

وهكذا كان تأليف كتاب الاستيعاب في فقه الامام مالك باشارة من الحكم .

ومن العلماء من قام بتأليف كتبه ثم أهداها الى بعض أعيان عصره قال الجاحظ « اهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك فاعطانى خمسة آلاف دينار واهديت كتاب البيان والتبيين الى ابى داود فاعطانى خمسة آلاف دينار وأهديت كتاب الزروع والنخيل الى ابراهيم بن العباس الصولى فاعطاني خمسة آلاف دينار » .

وكذلك فعل العلامة عبد الله بن أحمد بن الخشاب ، شرح مقدمة الوزير ابن هبيرة في النحو فوصله هذا الوزير بالف دينار وآخرون ذكر صاحب كشف الظنون جماعة منهم .

شغفهم بتأليف الكتب

وايا كان نوع الدوافع لعلماء المسلمين في تأليف كتبهم فان هناك كتبا عظيمة عرفتها الحضارة الاسلامية وهذه اتت عن معاناة كبيرة في التأليف وتجارب متعددة متلاحقة توارثتها الأجيال في أحقاب متعاقبة ونحن سنسلم ببعض الجوانب من طرقهم في التأليف وحالهم في الكتابة وكنا قد اشرنا فيما سبق الى نماذج من عاداتهم في الرجوع الى المصادر واعتمادهم على الذاكرة في تأليف كتبهم .

وقد نبه جماعة من العلماء على الأوقات التي يستحب فيها الكتابة والتأليف فقال ابن جماعة مقسما اوقات الحفظ والكتابة « اجود الأوقات للحفظ الأسحار وللبحث الأبكار وللكتابة وسط النهار وللمطالعة والمذاكرة الليل »(١) .

وكان الشافعى يجزيء الليل ثلاثة أجزاء الثلث الأول للكتب والثاني يصلى والثالث ينام »(٢) .

---

١ ــ تذكرة السامع ص ٧٣

٢ ــ القاضى عياض : الالماع ص ٢٣٤

وكثير من العلماء استحبوا الليل في المطالعة والتأليف والعبادة وكان ابن دقيق العيد ، « لاينام الليل الا قليلا يقطعه بمطالعة وذكر وتمجد وكانت أوقاته كلها معمورة »(١).

وقال عن معاصره ابن سيد الناس « اذا فتح له باب في العلم انقضت تلك الليلة في تلك المادة حتى في شعر المتأخرين والعصريين »(٢).

وكان ابو عبيده يقسم الليل اثلاثا فيصلى ثلثه وينام ويضع الكتب ثلثه الآخر .(٣)

ويقول ابن حجر العسقلانى عن الأذرعى المتوفى سنة ٧٨٣ هـ « ذكر لى انه كان يكتب في الليل على شمعتين موكبتين او اكثر وذكر لى بعض مشايخنا انه كان يكتب في الليل كراسا تصنيفا وفي النهار كراسا تصنيفا لايقطع ذلك ولكن لو كان ذلك مع المواصلة لكانت تصانيفه كثيرة

---

١ — الوافى بالوفيات — ٤ ص ١٩٤
٢ — المصدر السابق ج ٤ ص ١٩٥
٣ — تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٢١٤

جدا لكن لعله ترك ذلك مسودات فضاعت بعده »(١).

وفي اليمن كان الفقيه موسى بن احمد الوصابى المتوفى ٦٢١ اكثر تأليفه بالليل « لكثرة اشتغاله بالنهار بالتدريس »(٢) ✪.

وربما فضل الفارابي تأليف كتبه بين الأنهار والأشجار على خلاف قاعدة العلماء لأن هذه الأشياء ملهية للخاطر ولذلك يحذر ابن جماعة طالب العلم بقوله « وليس محمود الحفظ بحضرة النبات والخضرة والأنهار وقوارع الطريق وضجيج الأصوات لأنها تمنع من خلو القلب غالبا » أما الفارابي فقد قال عنه الصفدى : « لما قدم دمشق كان يلازم غياض السفرجل وربما صنف هناك وقد ينام فتحمل الريح تلك الأوراق وتنقلها من مكان الى مكان وقيل ان السبب في وجود بعض مصنفاته فيها نقص هو ذلك لأن

---

١ ــ الدرر الكامنة ج ١ ص ١٢٧

٢ ــ تاريخ وصاب للجيشى ص ١٦٩

✪ ويقول الغبيني عن العلامة عبد الحق الأزدي الاشبيلى المتوفى سنة ٥٨١ « سمعت أنه رحمه الله كان يقسم ليله اثلاثا ثلثا للقراءة وثلثا للعبادة(التصنيف) وثلثا للنوم »

الريح ربما اطارت تلك الأوراق بعضها من بعض وكان لا يصنف الا في الرقاع لا في الكراريس »(١) .

وفي أثناء التأليف ربما اعترتهم حالات عجيبة من الهوس وكان الشاعر بن محمد النامى المتوفى سنة ٣٩٩ هـ بطيء الخاطر اذا اراد أن ينظم شعرا خلا خلوة طويلة اياما وليالى فاذا نطقت في داره جارية او غلام كاد أن يقتله وانقطع خاطره ، واذا اراد ان يعمل قصيدة جمع جميع ما للعرب والمحدثين من الشعر على وزن تلك القصيدة وجعله حوله ونظر فيه حتى يجتلى معانيه وكانت تتم القصيدة له في سبعة أشهر أو أكثر »(٢) .

وربما استعمل بعض العلماء أشياء من المنبهات والمسليات اثناء البحث وهذا الحافظ الكبير ابو مسلم القشيرى صاحب الصحيح قد نبه على حديث لم يعرفه « فانصرف الى داره وأوقد السراج وقال لمن في الدار لا يدخلن احدكم البيت فقيل له اهديت لنا سلة فيها تمر فقال قدموها الي فقدموها اليه فكان يبحث عن الحديث ويأخذ

---

١ ــ الوافى ج ١ ص ١٠٧

٢ ــ الوافى بالوفيات ج ٨ ص ٩٨

تمرة بعد تمرة يمضغها فاصبح وقد فنى التمر ووجد الحديث »(١).

وكان محمد بن عمران المرزباني المتوفى سنة ٣٨٤هـ « يضع المحبرة وقصعة نبيذ امامه فلا يزال يكتب ويشرب ».(٢) ✪

وربما لاحظوا اصطياد الخواطر فدونوها وقد ذكر عن الامام البخاري رحمه الله انه كان بمنزله ذات ليلة فلاحظ عليه زميله انه قام واسرج السراج ليتذكر اشياء ويعلقها في ليلة واحدة ثماني عشرة مرة وقال محمد بن حاتم الوراق كنت ارى البخاري يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة الى عشرين وكل ذلك يأخذ القداحة فيوري نارا ويسرج ثم يخرج احاديث فيعلم عليها ثم يضع رأسه »(٣)وكذلك كان يفعل الامام الشافعي .

---

١ ــ تاريخ بغداد ج ١٣ ص ١٠٣

✪ ومثله ابن سينا يقول « كنت أرجع بالليل الى داري واضع السراج بين يدي واشتغل بالقراءة والكتابة ومهما غلبني النوم او شعرت بضعف عدلت الى شراب قدح من الشراب وربما تعود الى قوتي ثم ارجع الى القراءة » القفطي تاريخ الحكماء . ص ٤١٥

٢ ــ لسان الميزان ج ٥ ص ٣٢٦

٣ ــ السبكي : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٧ ط ملك المغرب .

وكان المزني اذا فرغ من مسألة في كتابه المختصر صلى ركعتين . وكذلك فعل البخاري في صحيحه كلما انتهى من حديث توضى وصلى ركعتين .(١)

ولا تسل عن فرحة العلماء كلما بانت لهم مشكلة في اثناء بحثهم فهذا العلامة ابو جعفر محمد النسفي المتوفى سنة ٤٢٤ « يحكي انه بات ليلة مهموما من الإضافة وسوء الحال فوقع في خاطره فرع من فروع الفقه فاعجب به فقام يرقص في داره ويقول اين الملوك وابناء الملوك فسألته زوجته عن ذلك فاخبرها فتعجبت »(٢).

وربما تدافعت الخواطر اثناء التأليف فعرضت صاحبها لأذية كبيرة ولهذا نجد الجاحظ ينصح الباحث بقوله « وليعلم ان صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه فما اكثر من يعزم على خمسة اسواط فيضرب مائة لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطبع فأراه السكون في الاقلال فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة فزاد غضبه فأراه الغضب ان الرأى في الاكثار وكذلك صاحب القلم فما اكثر من

---

١ — المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٨

٢ — الوافي بالوفيات ج ٢ ص ٧٤

يبتدىء الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة والحفظ مع الاقلال امكن وهو مع الاكثار ابعد »(١).

ولهذا شددوا في تنقيح الكتب وتهذيبها قبل عرضها على الناس اذ ينصح ابن جماعة الباحث بقوله « ولا تخرج تصنيفك من يدك قبل تهذيبه وتكرير النظر فيه وترتيبه »(٢).

ويقول النووي « وليحذر اخراج تصنيفه الا بعد تهذيبه وتحريره والنظر فيه »(٣).

ويقول ابن المدبر في هذا المعنى « فان منيت بحب الكتابة وصناعتها وتأليفها وجاش صدرك او نفسك الى تأليف الكلام المنشور فلا تدعوك الثقة بنفسك والعجب بتأليفك ان تهجم به على اهل الصناعة فانك تنظر الى تأليفك بعين الوالد لولده والعاشق الى عشيقه ولكن اعرضه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجا بغيره فان اصغوا اليه وادنوا له وشخصوا بالابصار واستعادوه وطلبوه منك فاكشف عن

---

١ ــ الحيوان ج ١ ص ٨٨

٢ ــ تذكرة السامع ص ٣٠

٣ ــ النووى : التقريب ج ٢ ص ١٥٦

ولهذا مكث العلامة السجستانى يؤلف كتابه في غريب القرآن خمس عشرة سنة ويراجعه مع شيخه ابن الانباري .

تلك الرسالة أو الخطبة واشهر اسمه وانسبه الى نفسك وان رأيت عنه العيون منصرفة والقلوب عنه واهية فاستدل به على تخلفك على الصناعة وتقاصرك عنها واسترب رأيك عند رأي غيرك من اهل الادب والبلاغة »[1] .

ويلح الجاحظ مرة اخرى على الرجوع الى تنقيح الكتب ويقول « اعلم ان العاقل ان لم يكن بالمتتبع لما يكتب فكثير ما يعتريه ما يعتريه من ولده ان يحسن في عينه منه المقبح في عين غيره فليعلم ان لفظه اقرب نسبا من ابنه وحركته امس به رحما من ولده لأن حركته شيء احدثه نفسه ومن عين جوهره فصلت ومن نفسه كانت واما الوالد كالمخطة يتمخطها والنخامة يقذفها ولا سواه اخراجك من جزئك شيئا من لم يكن منك واظهارك حركة لم تكن حتى كانت منك . ولذلك تجد محنة الرجل بشعره ومحنته بكلامه وكتبه فوق فتنة بجميع نعمته »[2] .

وهكذا يبين الجاحظ صلة الكاتب بما يكتب وانها اقرب رحما من ولده وربما اضره ما يكتب ولم يضره احد من اولاده وكل

---

١ ــ الرسالة العذرا ص ١٨٦ ضمن رسائل البلغاء

٢ ــ الحيوان ص ٨٩

نعمه وربما وقع الجاحظ نفسه في اشكالات علمية وقع فيها بسبب السرعة فيما يكتب اثناء التأليف فقد حدثنا البغدادي قال « حدثنا يحيى بن علي قال حدثني والدي قال قلت للجاحظ اني قرأت في فصل من كتابك المسمى بالبيان والتبيين ان مما يستحسن من النساء اللحن في الكلام واستشهدت ببيتي مالك بن اسماء يعنى قوله :

وحـــــديث الـــــذه هو مما
تبـــعث الباعثـــون يوزن وزنـــا
منطـــق صائب ويلحـــن احيـــا
نا وخير الحديث ما كان لحنـــــا

قال هو كذلك قلت أفما سمعت بخبر هند بنت اسماء مع الحجاج حين لحنت في كلامها فعاب ذلك عليها فاحتجت ببيتي أخيها فقال لها ان اخاك اراد ان المرأة الفطنة فهى التي تلحن بالكلام الى غير المعنى وفي الظاهر تستر معناه وتوري عنه وتفهمه من ارادت التعريض كما قال تعالى « ولتعرفهم في لحن القول » ولم يرد الخطأ من الكلام والخطأ لا يستحسن من احد . فوجم الجاحظ ساعة ثم قال لو سقت هذا الخبر لما قلت ما تقدم فقلت له فاصلحه قال الآن وقد سار الكتاب

في الافاق هذا لا يصلح او نحو هذا الكلام »[1] .

وقد دل هذا النص على ان الجاحظ ربما فاتته اشياء في مصنفاته لم يطلع عليها من قبل او ربما سها عنها اثناء تأليفه ولا اظن الجاحظ يغيب عنه مثل هذا الخبر المشهور الا اذا كان سها عنه نتيجة توارد الافكار في تأليفه .

ودل ايضا على ان انتشار الكتاب بين النساخ يعادل ذلك الانتشار الذي تقوم به المطابع في عصرنا خاصة حينما يكون المؤلف شهيرا مثل الجاحظ فلا يستطيع تلافي الخطأ او النقص في الكتاب .

ومثلما حدث للجاحظ وقع لكثير من العلماء حيث ندموا على مؤلفات صدرت منهم وكان في انفسهم تلافي نقصها وتنقيحها بما هو افضل مما كان . وفي المغرب كان عبد الحق بن هارون السهمى المتوفى سنة ٤٦٦ قد وضع كتابا في النكت والفروق على كتاب المدونة انتشر بين الطلبة والناشئين « ويقال انه ندم بعد ذلك على تأليفه ورجع عن كثير من اختياراته وتعليلاته فيه واستدرك كثيرا من كلامه فيه وقال لو

---

١ ــ تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٢١٤

قدرت على جمعه واخفائه لفعلت . »[1]

وهذا كتاب الاغاني على شهرته الواسعة يقول ياقوت « وقد تأملت هذا الكتاب وعنيت به وطالعته مرارا وكتبت منه نسخة بخطي في عشر مجلدات ونقلت منه الى كتابي الموسوم باخبار الشعراء فاكثرت وجمعت تراجمه فوجدته يعد بشيء ولا يفي به في غير موضع منه كقوله في اخبار ابي العتاهية « وقد طالت اخباره هاهنا وسنذكر خبره مع عتب في موضع اخر » ولم يفعل وقال في موضع اخر « اخبار ابي نواس مع جنان اذ كانت سائر اخباره قد تقدمت » ولم يتقدم شيء الى ... لذلك والاصوات المائة هى تسع وتسعون . وما اظن الا ان الكتاب قد سقط منه شيء او ان يكون النسيان غلب عليه والله اعلم »[2] .

وهذه ملاحظة هامة تنبه لها ياقوت في كتاب الاغاني للاصفهاني وهى كثيرة الحدوث في كتب المتقدمين والمتأخرين ولا اعلل ذلك الا لعدم التأني والتنقيح لما يكتب ويأتي ذلك في الغالب نتيجة السرعة وعدم التروى . وما اكثر

---

١ ــ ترتيب المدارك ج ٤ ص ٧٧٥ ط بكير

٢ ــ معجم الادباء ج ٥ ص ١٥١ ط مارغليوت

السهو عند المكثرين في التأليف وهذا موضوع سنعرض له فيما بعد . وقد قال الناس « الناقد بصير » وقالوا « من الف فقد استهدف » وكان الجاحظ يقول « ان كل من التقط كتابا جامعا وبابا من امهات العلم مجموعا كان له غنمه وعلى مؤلفه غرمه وكان له نفعه وعلى صاحبه كدره مع تعرضه لمطاعن البغاة ولاعتراض المنافسين ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة ومعانيه على الجهابذة وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة »(١) .

وهنا بيت القصيد حيث ان العقل الفارغ المترف يكون اكثر ملاحظة من عقل المؤلف المجهود المكدود مع عوامل اخرى بينها نص الجاحظ القيم .

ولهذا كله كان العلماء المدققون يتحرون المراجعة والتهذيب ولا يمنعهم في ذلك خجل او حياء من تلامذتهم وقد بلغ العلامة محمد بن عبد الواحد المعروف بثعلب الحد الاقصى في مراجعة كتبه وتهذيبها والزيادة عليها يقول من ترجم له « لما صنف كتاب الياقوت في اللغة زاد فيه مرة بعد مرة قال ابو عبيد الله النحوى ابتدأ باملاء هذا الكتاب « كتاب

---

١ ــ الحيوان ج ١ ص ١٠

الياقوت » يوم الخميس لثلاث من المحرم سنة ٣٢٦ في جامع المدينة « مدينة ابي جعفر » ارتجالا من غير كتاب ولا دستور فمضى في الاملاء مجلسا مجلسا الى ان انتهى الى آخره ثم رأى الزيادة فزادني الى اضعاف ما املى وارتجل يواقيت أخر واختص بهذه الزيادة ابو محمد الصفار لملازمته وتكرير قراءته لهذا الكتاب على المؤلف ثم جمع الناس على قراءة ابي اسحاق الطبري له وتسمى هذه القراءة الفذلكة فقرأه عليه وسمعه الناس ثم زاد بعد ذلك فجمعت انا في كتاب الزيادات كلها وبدأت بقراءة الكتاب عليه يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ٣٢٩ الى ان فرغت منه في شهر ربيع الاخر سنة ٣٣١ وحضرت السنخ كلها عند قراءتي على نسخة ابي اسحاق الطبري ونسخة ابي محمد الصفار ونسخة ابي محمد سعد القطربلي ونسخة ابي محمد الخفاجي وزادني في قراءتي عليه اشياء . ثم انه ارتجل بعد ذلك يواقيت اخر وزيادات اضعاف الكتاب واختص بهذه الزيادة ابو محمد وهب لملازمته ثم جمع الناس ووعدهم بعرض ابي اسحاق الطبري عليه هذا الكتاب ويكون اخر جزء منه يتقرر عليه هذا الكتاب ولا يكون بعدها زيادة وتسمى هذه العرضة المحرابية واجتمع

الناس يوم الثلاثاء من جمادى الاولى سنة ٣٣١ في منزلي بحضرة سكة ابي جهير فاملى على الناس ما نسخته »[١] .

وهذا غاية ما يصل اليه مؤلف في مراجعة كتابه والزيادة عليه ولعل اكثر ما وقع فيه العلامة ثعلب من نقص في كتابه هذا والزيادة عليه ناتج من عدم اعتماده على المصادر والاكتفاء بحافظته كما اشرنا الى ذلك من قبل .

وكان الامام الشافعي كثيرا ما يقول :

« الفت هذه الكتب ولم آل فيها ولا بد ان يوجد فيها الخطأ لان الله تعالى يقول « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » فما وجدتم في كتابي هذه مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه »[٢] .

على ان اكثر ما يقع في السهو من المؤلفين هم المكثرون في التأليف من العلماء وقد لاحظوا هذا على ابن الجوزي يقول الذهبي « كان كثير الغلط فيما يصنف فانه كان يفرغ من الكتاب ولا يعتبره وله وهم كثير في تواليفه يدخل عليه

---

١ ــ انباه الرواة ج ٣ ص ١٧٥

٢ ــ المقدسي : الاداب الشرعية ج ٢ ص ١٥٤

الداخل من العجلة والتحويل الى مصنف اخر ومن ان جل علمه من كتب صحف ما مارس فيها ارباب العلم كما ينبغي »[1] .

وكثير منهم دخلوا عالم التأليف مع عدم اهلية ومعرفة وقد نقدهم العلماء في ذلك وربما كان في بعض نقدهم ميل الى التحامل والتحيز الا ان هذا لا يمنع من وجود هنات في تلك المؤلفات والعلماء اعرف الناس ببعضهم البعض وقد حمل العلامة الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ حملة كبيرة على كل من يتصدى للتصنيف وخاصة في المسائل الدينية مع عدم اهلية ومعرفة يقول « اذا كان الناقل من غير اهل الفن لا يدري ان من نقل عنه لا تمييز له فهذا جاهل ليس باهل لان يتكلم على احكام الله فاستحق العقوبة من الله باقدامه على الشريعة وهو بهذه المنزلة التي لا يستحق صاحبها ان يتكلم معها على كلام فرد من افراد اهل العلم فكيف على كلام الله ورسوله فبعدا وسحقا للمتجزئين على الله وعلى شريعته بالاقدام على التأليفات للناس مع قصورهم وعدم تأهلهم وقد كثر هذا الصنع من جماعة يبرزون ، ومعرفة مسائل الفقه التي هى

---

١ ــ تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٣٤٧ ط الهند

مشوبة بالرأي ان لم يكن هو الغالب عليها ويتصدرون لتعليم الطلبة لهذا العلم ثم تكبر انفسهم عندهم لما يجدونه من اجتماع الناس عليهم واخذ العامة باقوالهم في دينهم فيظنون انهم قد عرفوا ما عرفه الناس وظفروا بما ظفر به علماء الشريعة المتصدرون للتأليف والكلام على مسائل فيجمعون مؤلفات هى مما قمشت وطم حبل الحاطب صنع من لا يدري لمن لا يفهم يأخذها عنهم من هو اجهل منهم واقصر باعا في العلم فينتشر في العالم وتظهر في الملة الاسلامية فاقرة من الفواقر وقاصمة من القواصم وصاحبها لجهله يظن أنه قد تقرب الى الله بأعظم القرب وهو فاسد الظن باطل الاعتقاد مستحق لسخط الله وعقوبته لانه اقدم محل الإحجام وتحلى بما ليس له ودخل في غير مدخله ووضع جهله على اشرف الأمور واعلاها واولاها بالعلم(١) » الى آخر قول الشوكانى في كلام طويل .

وكثير من العلماء من حذر من التصنيف ممن لا معرفة له يقول ابن جماعة « واما من لم يتأهل لذلك فالانكار عليه نتيجة لما يتضمنه من الجهل وتقرير من يقف على ذلك

---

١ ــ الشوكانى ادب الطلب

التصنيف ولكونه يضيع زمانه فيما لم يتفقه به ويدع الاتقان الذي هو احرى منه » (١).

وقد عاب السخاوي على كثير من معاصريه تأليفهم لعدم تمكنهم من فنونهم يقول عن البلقيني « بلغت مصنفاته ثلثمائة كتاب وكان يكتب في كل فن سواء اتقنه او لم يتقنه »(٢).

ويقول عن قاسم بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ هـ « كان بعضهم يقول ان كلامه اوسع من علمه »(٣)

ويقول عن علي بن داود الصيرفي المتوفى سنة ٩٠٠ هـ وعن تاريخه « نسخ من (بداية) ابن كثير ونحوها أشياء في مجلدات تضحك أو يُبكى عليه فيها والعجب انه قرضها له كثيرون . ثم آل امره الى ان نفد ما معه واحتاج فناب في القضاء عن ابن الشحنة في سنة ٨٧١ وجلس ببعض الجوانب وصار يكتب الدرر والانباء وغيرها من تصانيف شيخنا ابن حجر العسقلاني وغيره ويرتفق بذلك مع مخالطة بعض الرؤساء ونصب نفسه للكتابة فكان تاريخا لكونه لا تميز

---

١ — تذكرة السامع ص ٣٠

٢ — الضوء اللامع ج ٦ ص ١٠٣

٣ — المصدر السابق ج ٦ ص ١٨٨

له عن كثير من العوام الا بالهيئة مع سلوكه ما يستقبح بحيث امسكه جماعة الوالي وصرف بأمر السلطان مرة بعد اخرى ولما استقر ابن عيد لبّس عليه حتى ولاه ثم لما تبين له امره صرفه ولم يوله الذي بعده الا بعناية القطب الخيضري بل حسّن له عمل تاريخ للاشرف قايتباى وتوسط في ايصالها فكان ذلك من المضحكات واستدل من لم يعرف الواسطة بتقديمه على تأخره سيما وقد اخذ له من الملك مبلغا لزعمه انه تكلف نساخته وتوابعه ما استدان اكثره »[1] ... الخ .

وما اكثر امثال الصيرفي في عصرنا الحاضر.ومن العلماء من تعب في التحصيل ولم يسدد في التأليف كالعلامة اسماعيل بن ابراهيم الخباز المتوفى سنة ٧٠٣ يقول الصفدى عنه « الف وخرج وحصل له الاجزاء وتعب ومع عمله الكثير لم ينجب ولا اتقن شيئا ولا كان يدري نحوا ولا يكتب جيدا بل له دربة في الجملة وله خطأ كثير » .[2]

وقال النسائى عن اسد بن موسى المرواني المتوفى سنة ٢١٢ « ثقة لو لم يصنف كان خيرا له » وكثير منهم من اتهم

---

١ ــ المصدر السابق ج ٥ ص ٢١٨

٢ ــ الوافى بالوفيات ج ٦ ص ٦٥

بالجرأة في التأليف والاقدام عليه دون تمكن ولاحظ الصفدى على معاصره محمد بن ابي طالب المعروف بشيخ الربوة الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ تهوره في العلم وجرأته في الاقدام على التأليف يقول عنه :

« من اذكياء العالم له قدرة على الدخول في كل علم وجرأة على التصنيف في كل فن رأيت له عدة مصنفات حتى في الاطعمة وفى اصول الدين على غير طريقة اعتزال ولا اشاعرة ولا حشوية لانه لم يكن له علم وانما كان ذكيا فيوما اجده وهو يرى رأي الحكماء ويوما اراه يرى رأى الاشاعرة ويوما اراه يرى رأى الاعتزال ويوما اراه يرى رأى الحشوية وكان يتكلم فى الاوفاق ويتكلم عن اسرار الحروف ويعرف الرمل جيدا وله في كل شيء يتكلم فيه تصنيف وكان يتكلم في علم الكيمياء ويدعى فيها اشياءوالظاهر انه كان يعرف ما يخدع به العقول ويلعب بألباب الاغمار »(١) .

ويقول ياقوت عن احمد بن ابي طاهر المعروف بطيفور « كان مؤدب كتاب عاميا ثم تخصص وجلس في سوق الوراقين في الجانب الشرقي . ولم ار ممن شهر بمثل ما شهر به

---

١ — المصدر السابق ج ٣ ص ١٦٣

من التصنيف للكتب وقول الشعر اكثر تصحيفا منه ولا ابلد علما ولا ألحن ولقد أنشد شعراً في اسحاق بن ايوب لحن في بضعة عشر موضعا وكان اسرق الناس لنصف بيت وثلث وكان مع هذا جميل الأخلاق ظريف المعاشرة »[1].

ويقول الصفدى في ترجمة محمد بن هلال عرس النعمة « كان يجازف في تاريخه ويذكر ما ليس بصحيح »[2].

وقد اتهم ابن دجية الكلبي الاندلسي المتوفى سنة ٦٣٣ هـ ببعض المجازفة في العلم فقال ابن حجر « كان مع فرط معرفته بالحديث وحفظه الكثير له مُتهماً بالمجازفة في النقل وبلغ ذلك الملك الكامل فأمر ان يعلق ويصنف شيئا على كتاب (الشهاب) فعلق كتابا تكلم فيه عن احاديثه واسانيده فلما وقف الكامل على ذلك قال له بعد ايام قد ضاع شيء من ذلك الكتاب فعلق لي مثله فجاء في الكتاب الثاني مناقضه للاول فعرف السلطان عنه صحة ما قيل عنه وعزله من دار الحديث »[3].

---

١ ــ معجم الأدباء ج ١ ص ١٥٣

٢ ــ الوافى بالوفيات ج ٥ ص ١٦٨

٣ ــ لسان الميزان

وقد اتهم صاعد البغدادي بالمجازفة في العلم حتى في وضع اسماء بعض الكتب الوهمية وقد اراد المنصور صاحب الاندلس ان يختبر في ذلك فسأله عن عنوان كتاب اخترعه من نفسه فقال له « هل رأيت فيما وقع لك من الكتب كتاب « الكواكب والزوابل » لمبرمان بن يزيد فقال نعم رأيته ببغداد في نسخة لابي بكر دريد بخط كراع النمل فقال له المنصور اما تستحي ابا العلا من هذا الكذب هذا كتاب عاملنا ببلد كذا يذكر فيه ان الارض قد قلت وزبلت فأخذت من قوله ما سألتك فأخذ صاعد يحلف انه صادق القول.»

وآخرون لا مجال لذكرهم من المتأخرين نكتفي منهم بذكر واحد هو العلامة محمد بن عبد المنعم الجوهرى المتوفى سنة ٨٨٩ الذي يقول عنه السخاوي « سارع بقوة ذكائه في الكتابة على الفتاوى فكثرت مخالفته فيها وفي تصانيفه فلا يكاد يرجع ويبرهن على ما تورط فيه وكذا تسارعه الى الاذن بالفتوى والتدريس بل والتقريض على التصانيف الصادرة من غير المتأهلين حتى انه كتب لشخص يسمى تاج الدين

الشامي ولي نظر الاصطبل مرة على مصنف زعم انه اختصر فيه (المهذب) »(١).

ونحن نعتذر له ولغيره بما اعتذر الجاحظ الذي يقول :

« عقل المنشيء مشغول وعقل المتصفح فارغ »(٢).

ويقول يحيى بن خالد « لا يزال الرجل في فسحة من عقله ما لم يقل شعرا أو يصنف كتابا »(٣).

وكتب جعفر بن يحيى الى بعض عماله وقد وقف على سهو في كتاب ورد منه « اتخذ كتابك منصفا لكتبك فان المؤلف تنازعه امور وتعتوره خروق تشغل قلبه وتشعب فكره من كلام ينسقه وتأليف ينظمه ومعنى يتعلق به يشرحه وحجة يوضحها والمتصفح للكتاب ابصر بمواضع الخلل من مبتدييء تأليفه » .

وكان الاولى تقديم الاعتذار عنهم في اخطائهم ومجازفتهم وقد عاشوا ازمنه تندر فيها المصادر وتقل الكتب ولا تأتي الا بجهد شاق من النساخة والرحلة وما بالك برجل يطلب كتابا

---

١ ــ الضوء اللامع ج ٨ ص ١٢٤

٢ ــ معجم الأدباء ج ١ ص ٩

٣ ــ نفح الطيب

كبيرا في الف صفحة فلا يحصل عليه الا بعد سنة من النسخ والمقابلة وتحضرني هنا حادثة وقعت للفقيه موسى بن عبد الملك بن سعيد حيث علم بنسخة من كتاب عن شعراء الاندلس في عصر دولة ابن هود وكان ذاك يضع كتابه المغرب في تاريخ الاندلس فارسل لصاحب النسخة يستعيرها منه « فابى وقال علي يمين ان لا تخرج عن منزلي وقال ان كانت له حاجة يأتي على رأسه وكان هذا الرجل جاهلا فلما سمع موسى بن عبد الملك بن سعيد ضحك وقال لابنه سر معي اليه فقال له ابنه ومن يكون هذا حتى تمشى له على رأسك ؟ فقال اني لا امشي له ولكن امشى للفضلاء الذين تضمنت تلك الكراريس اشعارهم واخبارهم اتراهم لو كانوا احياء مجتمعين في موضع انفت ان امشي اليهم قال ابنه لا قال فان الاثر ينوب عن العين فمشيا الى منزل الرجل » يقول ابنه « فوالله ما انصفنا في اللقاء فلما قضينا منها الغرض صرفها اليه والدى وشكره وقال هذه فائدة لم اجدها عند غيرك فجزاك الله تعالى خيرا » .

فانظر الى هذا الرجل يلاقي مشقة كبرى في سبيل الحصول على مرجع واحد فما بالك بمن هو اقل شأنا من ابن

سعيد وكان هذا الرجل حاكم ولاية .

وكما وجدنا الكثير من العلماء قد تهافتوا على التأليف بمعرفة او بدون معرفة ، نجد البعض منهم قد احجم عن الدخول في هذا الجانب على الرغم من درايته وقدرته في الدخول في هذا الشان ، وهذا ياقوت يقول عن العلامة ابو مضر محمود بن جرير الضبي الاصبهاني المتوفى سنة ٥٠٧ هـ انه مع بناهة قدره وشيوع فكره لم أجد مصنفا مذكوراً ولا تأليفاً مأثوراً .

وربما ارهقهم الحصول على مرجع نادر فبعثوا من ينادي عليه عند مجمع المسلمين في الحج ، وهذا العلامة ابو بكر بن الاخشاذ يقف على اسم كتابين في فهرس مؤلفات الجاحظ بعنوان « الفرق بين النبي والمتنبي » و « دلائل النبوة » يقول « فأحببت ان ارى الكتابين ولم اقدر الا على واحد منهما وهو كتاب دلائل النبوة وربما لقب بالفرق خطأً فهمني ذلك وساءني في سوء ظفري به فلما شخصت من مصر ودخلت مكه حرسها الله تعالى حاجا اقمت مناديا بعرفات ينادي والناس حضور من الافاق على اختلافهم واختلاف بلدانهم وتنازع اوطانهم وتباين قبائلهم واجناسهم من المشرق الى المغرب ومن مهب الشمال الى مهب الجنوب وهو المنظر

الذي لا يشابهه منظر: رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبي لابي عثمان الجاحظ على اي وجه كان » .

قال غطاف المنادي في ترابيع عرفات وعاد بالخيبة وقال حجب الناس منى ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به قال ابن الاخشاذ وانما اردت بهذا ان ابلغ نفسي عذرها »[1] .

انظر الى هذه المشقة التي يلاقيها عالم كبير في سبيل الحصول على كتاب ومع ذلك لم يوفق ببغيته .

ومثل هذا المسلك فعل احد الملوك في البحث عن ديوان ابن القم اليمني يقول عمارة حدثني ابو الصباح قال دخلت العراق فكلفني الملك بالبحث عن ديوان ابن القم في مكة اثناء الحج[2] .

وهناك ظاهرة عجيبة في الحضارة الاسلامية تحتاج الى الاهتمام وهى ان الدوافع في تأليف الكتب عند العالم المسلم لا تشجع على ما عرف عنهم من تلك الكثرة والتوسع في التأليف اذ العالم منهم يتعب في تأليف كتاب واحد ثم يتركه

---

١ ــ معجم الادباء ج ١٦ ص ١٠٢ ط الرفاعى

٢ ــ المفيد ص ٢٤١

بأيدى الأقدار ولا يعلم مصيره وقبوله عند الناس بالنقل والانتشار وهذا يختلف تماما عند المعاصرين اذ الطباعة توفر من الكتاب نسخا كبيرة يكاد يضمن المؤلف بقاءها مدة طويلة من الزمان بجانب ذلك الربح المادي السريع او على الاقل الصيت الكبير .

ومهما يكن الامر فان علماء المسلمين حثوا على التصنيف ووضعوا له قواعد وشروطا يقول ابن جماعة :

« الاشتغال بالتصنيف والجمع من تمام الفضيلة وكما الاهلية فانه ـــ اي الباحث ـــ يطلع على خفايا الفنون ودقائق العلوم للاحتياج الى كثرة التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة »(١).

ويقول الخطيب البغدادي عن فوائد التأليف للمؤلف نفسه « يثبت الحفظ ويذكى القلب ويشحذ الطبع ويجيد البيان ويكتسب جميل الذكر وجزيل الاجر ويخلده الى آخر الدهر »(٢).

---

١ ـــ تذكرة السامع ص ٣٠

٢ ـــ المصدر السابق

ويقول السرى بن احمد الكندى :

كن للعلوم مصنفا او جامعا يبقى لك الذكر الجميل مخلدا
كم اديب ذكره بين الورى غض وقد اودى به صرف الردى

ويقول ابن الجوزى في خواطره :

« رأيت من الرأى القويم ان نفع التصانيف اكثر من نفع التعليم بالمشافهة لأنى اشافه في عمرى عددا من المتعلمين واشافه بتصنيفى خلقا لا يحصون ما خلقوا بعد . ودليل هذا ان انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين اكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من شيوخهم . فينبغى للعالم ان يتوفر على التصانيف ان وفق للتصنيف المفيد فانه ليس كل من صنف صنف وليس المقصود جمع شيء كيف كان وانما هى اسرار يطلع الله عز وجل عليها من شاء من عباده فيجمع ما شتت او يشرح ما اهمل هذا هو التصنيف المفيد . وينبغى اغتنام التصنيف في وسط العمر لان اوائل العمر زمن الطلب وآخره كلال الحواس وربما خان العقل والفهم من قدر عمره وان يكون التقدير على العادات الغالبة لانه لا يعلم الغيب فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل الى الاربعين ثم يبتدى بعد الاربعين بالتصانيف

والتعليم هذا اذا كان قد بلغ ما يريد من الجمع والحفظ واعين على تحصيل المطالب فاما اذا قلت الآلات عنده من الكتب او كان في اول عمره ضعيف الطلب فلم ينل ما يريده في هذا الاوان اخر التصنيف الى تمام خمسين سنة ثم ابتدأ بعد الخمسين في التصنيف والتعليم الى رأس الستين ثم يزيد بعد الستين في التعليم ويسمع الحديث والعلم ويعلل التصانيف « يصححها » الى رأس السبعين فاذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذكر الاخرة والتهيؤ للرحيل فيوفر نفسه على نفسه الا من تعليم يحتسبه او تصنيف يفتقر اليه فذلك اشرف العدد للآخرة » . (١)

وتلك وسيلة وقاعدة لمن يريد التصنيف .

ويضع ابن جماعة ترتيبا للمواد التي يجب ان يتناولها الباحث بالتأليف فيقول :

« والاولى ان يعتني بما يعم نفعه وتكثر الحاجة اليه وليكن اعتناؤه بما لم يسبق الى تصنيفه متحريا ايضاح العبارة في تأليفه معرضا عن التطويل الممل والايجاز المخل مع اعطاء كل مصنف ما يليق به » . (٢)

---

١ ــ الخطيب البغدادي تقييد العلم ص ١١٩

٢ ــ ابن الجوزى صيد الخاطر ص ٢٠٧ ط الطنطاوي

وقد حصر العلامة حاجي خليفة دوافع التأليف الى سبعة اقسام يقول :

ان التأليف على سبعة اقسام لا يؤلف عاقل الا فيها وهى :

اما شيء لم يسبق اليه فيخترعه

او شيء ناقص يتممه

او شيء مغلق يشرحه

او شيء طويل يختصره دون ان يخل بشيء من معانيه

او شيء متفرق يجمعه

او شيء مختلط يرتبه

او شيء اخطأ فيه مصنفه فيصلحه

ويضع شروطا للمؤلف الذى يؤلف في فن سبق اليه فيقول :

« وينبغى لكل مؤلف كتاب في فن سبق اليه ان لا يخلو من خمس فوائد استنباط شيء كان معضلا او جمعه ان كان مفرقا او شرحه ان كان غامضا او حسن نظم وتأليف واسقاط حشو وتطويل » .

وتلك حدود التأليف عند المسلمين حصرها عالم متخصص في هذا الفن وهي في عمومها تدور حول ما

تدعو اليه الحاجة الماسة من امور الدنيا والدين وقد صرح القاضي عياض بحاجة الناس الى التأليف بقوله « والحال اليوم داعية للكتابة لانتشار الطرق وطول الاسانيد وقلة الحفظ وكلال الافهام » .

ويقول السبكي « ينبغي للمرء ان يتخذ كتابة العلم عبادة سواء توقع ان تترتب عليها فائدة ام لا » .

ولا عبرة بقول من قال ان كثرة الكتب مضرة حيث يقول ابن خلدون :

« اعلم انه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها او اكثرها ومراعاة طرقها ولا يفى عمره بما كتب في صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولابد دون رتبه التحصيل فيمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بالكتب المدونة مثلا وما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللخمي وابن بشير والتنبيهات والمقدمات والبيان والتحصيل » الى ان

يقول «وهى كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم باستحضار جميعها وتمييز ما بينها والعمر ينقضى في واحد منها »..
الخ[1] .

وهذا القول في حقيقته يشير الى تلك الكثرة من الكتب الزائدة عن المطلوب حيث يصدق في المباحث الدينية التي يغنى فيها كتاب واحد مستوفى المادة كما قال ابن خلدون وكذلك في سائر علوم الآلة .

الا أن القاضي عياد يرى ضرورة الكتابة والتأليف بعد انتشار الطرق وتعددها يقول « والحال اليوم داعية للكتابة لانتشار الطرق وطول الاسانيد وقلـــــة الحفظ وكلال الافهام[2] » .

وقد انكر ابن جماعة الرأى القائل بعدم الحاجة الى التأليف من قبل العلماء المتمكنين فقال « ومن الناس من ينكر التصنيف والتأليف في هذا الزمان على من ظهرت اهليته وعرفت معرفته ولا وجه لهذا الانكار الا التنافر بين اهل الامصار والا فمن اذا تصرف في مداده وورقه بكتابة

---

١ ــ مقدمة ابن خلدون ص ١٠٢١ دار الكتاب اللبناني .
٢ ــ القاضي عياض : الالماع ص ١٤٩ .

ما شاء من الاشعار والحكايات المباحة او غير ذلك لا ينكر عليه فاما اذا تصرف فيه بتسويد ما ينتفع به من علوم الشريعة ينكر ويستهجن »

ولهذا تجد ابن جماعة يبيح التصنيف للباحث متى استكمل الشروط العلمية . « اذا اكملت اهليته وظهرت فضيلته ومر على اكثر الكتب في الفن او المشهورة منها بحثا ومراجعة اشتغل بالتصنيف » .

وينصح الجاحظ مؤلف الكتاب بالارشاد الى اختيار الاسلوب الاليق فيقول :

« وليس الكتاب الى شيء احوج منه الى افهام معانيه حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الرواية ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن الالفاظ السفلية والحشو ويحيطه من غريب الالفاظ ووحشى الكلام . وليس له ان يهذبه جدا وينقحه ويصفيه ويروقه حتى لا ينطق الا بلب اللب وباللفظ الذى قد حذف فضوله واسقط زوائده حتى عاد خالصا لا شوب فيه فانه ان فعل ذلك لم يفهم عنه الا بأن يجدد لهم إفهاما مرارا وتكرارا لان الناس كلهم قد

تعودوا المبسوط من الكلام وصارت افهامهم لا تزيد على عاداتهم » .

ويضع ابن المدبر عدة قواعد وشروط للتأليف فيقول ناصحا الكاتب :

« وابتغ لكتابك فراغ قلبك وساعة نشاطك فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتكلف لان سماحة النفس بمكنونها وجود الاذهان بمخزونها انما هو مع الهوة المفرطة في الشر والمحبة الغالبة فيه او الغضب الباعث منه ذلك» .

ويقول :

« وادر الالفاظ في اماكنها واعرضها على معانيها وقلبها على جميع وجوهها حتى تقع موقعها ولا تجعلها نافرة قلقة فمتى صارت كذلك هجنت الموضوع الذى اردت تحسينه واعلم ان الالفاظ واماكنها كرقع الثوب الذى اذا لم تتشابه رقاعه تغير حسنه ».

وهذه بعض من نصائحهم للمؤلف المنشي على ان هذه النصائح يحتاجها الباحث في فنون الادب اما غيره فالغالب عليهم السرد والنقل لنصوص من تقدمهم وربما

تميزت بعض كتبهم بالترتيب والتنسيق اكثر مما تميزت بها كتب غيرهم واعنى هنا الكتب ذات الصبغة العلمية غير الادبية .

وهناك ظاهرة عجيبة حفلت بها كتب الحضارة الاسلامية وهي كثرة الاستطرادات والدخول في موضوع الى موضوع وهذا يكثر في كتب العصر المملوكي ، حتى قال ابن حجر العسقلاني عن احد معاصريه وهو العلامة محمد بن قاسم النويري صنف تصنيفا في ثلاثة مجلدات عن تاريخ حادثة الافرنج في الاسكندرية سنة ٦٧٠ فاطاله باستطرادات من شيء الى شيء فانه بدأ بفتح الاسكندرية فاطال في ذلك وساق اخبارها فكان خبر الواقعة في جانب ما ذكر كالشامة .

وكان ابن القيم « طويل النفس فيما يصنفه ويبالغ في الايضاح جهده فيسهب جدا ».

ويقال ان اكبر كتاب الف في الاسلام هو كتاب الفنون لابن عقيل ، يقول الذهبي لم يصنف في الدنيا من هذا الكتاب حدثني من رآى منه المجلد الفلاني بعد

الاربعمائة » . ومع ذلك نجد الخطيب البغدادي يقول عن كتب يحيى بن اكثم « اجل كتب في الفقه فتركها الناس لطولها .

على ان كثيرا من العلماء المدققين يحذرون من التصرف في كتبهم بالاختصار والحذف ، فهذا العلامة المسعودي يقول في اخر كتابه (مروج الذهب) « فمن حرف شيئا من مبناه أوطمس واضحة من معانيه او بدله او انتحله او اختصره او نسبه الى غيرنا او اضافه الى سوانا او أسقط منه ذكرنا فعليه من غضب الله وسرعة نقمته وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره ويحار له فكره وجعله مثله للعاملين » .

وكذلك حذر ياقوت من التلاعب بكتابه معجم البلدان .

المحتـــــوى

تقديم ٣
مقدمة ٩
صناعة الكتاب ١٥
النساخة ١٦
فن النساخة ٣٠
جمع الكتب والاحتفال بها ٧٢
اعارة الكتب ٩٥
حرق الكتب ١٠٧
شغفهم بمطالعة الكتب ١٢١
شغفهم بالتأليف ومنهجهم في البحث ١٣٥
سرقة الكتب ١٤٩
شغفهم بتأليف الكتب ١٦١

للمؤلف

أ ـ كتب :

(١) مراجع تاريخ اليمن ـ دمشق سنة ١٩٧٢ .
(٢) فهرس المخطوطات اليمنية ـ عدن سنة ١٩٧٤ .
(٣) الصوفية والفقهاء في اليمن ـ مصر سنة ١٩٧٦ .
(٤) دراسات في التراث اليمني ـ بيروت سنة ١٩٧٧ .
(٥) مصادر الفكر الاسلامي في اليمن ـ بيروت سنة ١٩٧٧ .
(٦) حكام اليمن ـ المؤلفون المجتهدون ـ بيروت سنة ١٩٧٩ .
(٧) حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول سنة (ط الأولى ١٩٧٧) (ط الثانية ١٩٨٠) .

ب ــ تحقيقات :

١ ــ اقراط الذهب في المفاخرة بين الروضة ونثر العرب ــ سنة ١٩٧٩ .
٢ ــ تاريخ وصاب ــ سنة ١٩٧٩ .
٣ ــ بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ــ سنة ١٩٧٩ .
٤ ــ أدب الطلب للشوكاني ــ سنة ١٩٧٩ .
٥ ــ النقش اليماني للاهدل ــ سنة ١٩٨٠ .
٦ ــ حوليات يمانية ــ دمشق سنة ١٩٨٠ .
٧ ــ كشف القناع عن أحكام الزراع ــ دمشق سنة ١٩٨٠ .

ج ــ تحت الطبع :

١ ــ المقامة في الادب اليمني « دراسة ونصوص » .
٢ ــ معجم المرأة اليمنية .
٣ ــ ثوار ما قبل الثورة .
٤ ــ مدرسة التاريخ اليمني .

٥ ــ تاريخ الفكر الاسلامي في اليمن .
٦ ــ المطرفية مذهب مجهول في اليمن ــ نشرت منه حلقات في مجلة اليمن الجديد سنة ١٩٧٦ .
٧ ــ محمد بن ابراهيم الوزير رائد التحرر في الفكر اليمني .
٨ ــ بيوت العلم في تهامة ــ نشرت منه فصول في مجلة العرب واليمن الجديد .
٩ ــ عبقرية المهدي .
١٠ ــ ابن عبد الوهاب ودعوته في التراث اليمني .
١١ ــ المدينة في الشعر اليمني .
١٢ ــ الحيمي ومدرسة البديع في اليمن .
١٣ ــ من حديث المكتبة اليمنية ــ دراسة لأمهات الكتب اليمنية ــ نشرت منه بعض الفصول في مجلتي العرب واليمن الجديد .
١٤ ــ بحوث يمانية ــ مجموعة مقالاته ودراساته الثانية . وله أبحاث أخرى لا تزال قيد الاستكمال .